



ملك النار

فوزي عوض

هذه السلسلة

عندما تتحول حياة الفرد منا إلى صحراء جرداء .

وعندما تجف مشاعرنا وتستحيل إلى أغصان يابسة .

يتوق قلب كل منا إلى الحب .. الحب الذى يروى هذه المشاعر .

فيعيـد إلى أوراقهـا الخضرة .. ويبـدل صحراءها إلى بساتين مزهرة ورياض غناء .

إنه الحب .. الحب بمعناه الرحب : حب الحبيب .. حب الابن .. حب الأب حب الأم .. حب الوطن .. حب البشر ..

هذه الكلمة السحرية التى تذيب أحجار القلوب .. وتنبت الزهور اليانعة فى صخور المشاعر الصلدة ..

إنها الزهور التى ينشدها كل منا فى لحظات اليأس .. وفى لحظات الغضب وفى لحظات الكراهية .. وفى لحظات الجفاف .. فيشع عبيرها الفواح فى ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبة والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا .

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال الشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المـؤلف

أبى / حمدى مصطفى ..

منحتنى ما لم يمنحـه أب لابن من صـلبه ، وعندما سألتك ذات يوم عن السر الذى وراء هـذا كان جوابك فى لفظين اثنين « لأنى أحبك » ، وأنا أقسم لك الآن كما أقسمت لك يومها بأننى لم أحب بشرًا كما أحببتك .. لقد رأيتك بعد ثلاثة أيام فقط من رحيلك سـعيدًا مستبشرًا ، فهنيئًا لك يا أبى بمثـواك الطيـب ، وبرضا الله عنك ، وبذريتك الصالحة التى حملت رسالتك بمنتهى الإخـلاص ، واحتفظت بنفس طيبتـك وهمتـك وحبـك للخيـر والعطاء .. هنيئًا لك يا أبى .. هنيئًا لك .

ابنـك

فـوزى



الفصل الأول

ربما مضت ساعة أو أكثر و(علاء) يتقلّب تحت بطانيته الرمادية الكالحة المهترئة فى محاولات مستميتة لمواصلة نومه ، ليس أرقًا ، ولكن بغضًا فى الاستيقاظ ، رغم أنه نائم منذ أذان الفجر ، وها هو أذان العصر يرتفع وهو ما زال يتقلّب فى سريره الحديدى الصدئ الذى يتسع بالكاد لشخص واحد .. أى أنه نام لما يزيد على العشر ساعات متواصلة .. نعم لقد شبع نومًا ، ولكن لماذا يستيقظ ؟ لا شىء ينتظره سوى الغم والاختناق واليأس .. ليته يستطيع قضاء عمره القادم كله نومًا .. إنها أمنيته التى تداهمه وهو يلقى بجسده فى فراشه كل ليلة بعد ضياع يومه بالكامل على مقهى « الصعايدة » فى انتظار الفرج مع جيش العمال والحرفيين الذين يكتظ بهم المقهى ، وكالعادة فشل فى قضائها نومًا فلم يملك إلا أن يسكن على ظهره محدقًا فى سقف الحجرة الذى تساقط معظم طلائه الجيرى الكابى القديم بفعل الرطوبة ، ولم يستطع أن يكبح جماح زفرته الملتهبة التى

جاءت مندفعة من بـؤرة أعماقه ، ولا أن يمنع سؤاله المختنق الذى كاد يمزق عقله وفؤاده : « وماذا بعـد ؟ ماذا بعـد ؟ » ، وأما الزفرة فلم تزده إلا اختناقًا ، وأما السؤال فسرعان ما جاءه جوابه قبل أن يرتد إليه طرفه .. طَرقات عنيفة متلاحقة على باب الحجرة المكتنز المتهالك ، وصوت نسائى ولكنه أشد عنفا وعصبية مــن طرقات البـــاب ، وكله تحفُز للشجار ، وسخرية قاسية تسمم البدن :

ـ أنت يا حاج (علاء) .. أنت يا قدم الخير .. أنت يا بركة .. يا وش السعد .. قم .. ارحم السرير المسكين الذى تعفن تحتك ، ويستجير منــك .. وقم افتح هــذا الباب قبل ما اكسره عليك !

قم ! إنهــا أم (يوســف) ، صاحبة المنزل الضخمة المتعافية ، ولسانها السليط منزوع الحيـاء والرحمـــة ، والتى رغم سكن (علاء) فى إحدى حجرات منزلها العجوز ، وعشرته لها لأكثر مــن عــام ، ورغم أدبه الجم معهـــا ، وحرصــه المتنـــاهى على معاملتها كأم له ، إلا أنه فشل فشلاً ذريعًا فى كسب ودها ، واتقاء سماجتها وسلاطة لسانها ، ليس عجزًا منه ، ولكن لأن هــذه هى طبيعتها التى وُلــدت بها ، وكيــف لامرؤ مهما بلغت

استطاعته أن يغير من طبع امرأة جاوزت الستين مــن عمرها ؟ إن هــذا هــو حالها حتى مع أبنائها الخمســـة وزوجاتهم ، فما البال بحالها مع ساكن فقير مثله يسدد إيجار حجرته شهرًا ويتعثر شهرين وربما ثلاثة .. إنها فى بعض الأحيان يبلغ بها الأمر حد معاملته كخادم لها ، وربما كعبد مــن زمن العبيد ، وهو ما كاد يدفعه أكثر من مرة إلى الانفجار فيها مشحونًا برغبة مجنونة فى الانقضاض عليها وطحنها بعلقة موت يصرع بها جبروتها هذا الذى يعذّبها ، ويعذّب الناس معهـــا ، ولكنه بالطبع كان سرعان ما يتراجع حتى لا يضيّع نفسه مع أولادها الأشد توحشًا منها من ناحية ، ولأنه لا يملك إمكانية الانتقال إلى مسكن آخر من ناحية أخرى ، فهو حتى لم يسدد إيجار الحجرة البائسة منذ ثلاثة أشهر ، إذن ليس أمامه سوى أن يتحمّل أم (يوسف) ولسانها وسفاهتها ، وأن يعد نفسه واحدًا من أبنائها الذين ابتلاهم الله بها .. انتبه على الطرقات التى تكاد تُسقط باب الحجـــرة المتهالك ، ووصلة الردح التى تتصاعد حدتهـــا .. كظم غيظه ، ودفع البطانية من فوقه بيديه وقدميه فى عصبية وسخط ، ناهضًا إلى الباب وهو يغمغـــم :

ــ ربنا يهدّك يا بجرة يا بنت البجرة .

كان يقصد « البقــرة » ، ولكنهــا لهجته الصعيدية المضحكة والتى تمنحه مع لدغته الواضحة فى حرف « الراء » نكهة خاصّة وخفة ظل ساحرة ، ولكن خفة ظله هذه تلاشت تمامًا داخل بركان غضبه الطافح على وجهه وفى عينيه الحمراوتين وهو يفتح الباب ليجد المرأة الضخمة منتصبة فى وجهه كثــور عفى مسعور ، وقبل أن يفتح فمه كانت هى تبادره قائلة بسخريتها السامة :

ــ صح النوم يا سبع الشباب !

تجاهل استفزازها ، وأجابها بود وهو يفرك عينيه الحمراوتين :

ــ صباح الخير يا حاجة .

وجاءه الرد بسخرية أشد وهى تحدجه بنظراتها الغليظة :

ــ صباح ؟! أى صباح يا حيلة أمك ؟! ألم يثقب أذان العصر أذنيك هاتين الأكبر من أذنى الأرنب ؟!

كاد يلكمها فى فكها لولا ذرة عقل جعلته يتماسك مواريًا غيظه بابتسامة متوترة ، ثم يجيبها بأدبه الإجبارى :

ــ للأسف يا حاجة راحت علىّ نومة .

ــ وستروح عليــك حياتك كلها بهــذه الطريقة إن شــاء الله يا عين أمك .

انفجر غيظه ، وطفح على وجهه ، ولكنها كالعادة لم تبال به ولا بغيظه ، واندفعت مستطردة بكل سخطها :

ــ ما حــكايتك يا بنى ؟! ما حــكايتك ؟! هــل هــذه حيــاة شاب فى سنك وبصحتك ؟! تسهر على القهــوة حتى الفجــر ، وتنام إلى ما بعد العصر ؟! كيف هذا يا بنى ؟! كيف هذا ؟! هــل تنــوى أن تقضى حياتك كلهــا هــكذا لا شــغلة ولا مشــغلة ؟! وكيــف ســتعيشها هــكذا ؟! تأكــل شــكك ، وتشرب شكك ؟! وتسكن شكك ؟! كيف هــذا ؟! يا بنى البنــت ــ أى بنت ــ الآن لا تقبل هذا على نفسها ، فكيف يقبله شاب فى سنك وبصحتك ؟! كيف ؟!

كيف ؟!



والتوت شفتى المرأة بمنتهى القرف والاحتقـــــار ، وانفلتـت مــن عينيهـــا نظــرة أشـــد قرفًا واحتقـــارًا ، استدارت بعدهـــا هابطة سلم المنـــزل وهى تردف مغمغمــــة بمنتهى السخط :

ــ شباب آخر زمن ، لعنة الله عليكم وعلى البطون التى ولدتكم .

ومن وطأة الصدمة تجمّد (علاء) فى مكانه وهو يشيّعها بنظرة ذهول كمن سقط على رأسه الطير .

★ ★ ★

ما إن لمح (ياسر) وهو يمضى بصنية المشروبات التى يحملها (عـــلاء) مقبلاً على المقهى حتى صاح مبتهجًا دون أن يتوقّف :

ــ يا هلا يا هلا بجواهر الصعيد .

وأنزل المشروبات فوق طاولة يلتف حولها أربعة زبائن ، ثم أسرع يتلقّى (علاء) مستطردًا بابتهاجه وخفة ظله :

ــ يا عم (لوءة) .. يا عم (لوءة) مُزتك روشتنا .. من طلعة الشمس لم تكف عــن الذهاب والعودة أمام القهوة بحثًا عنك .. هرست السكة .. ارحم يا جدع .. البنت دماغها طارت .. حرام عليك .

لـــم يجبـــه (عـــلاء) ببنـــت شـــفة ، وجلـــس بعبوســـه الشديد الـــذى يطفئ وجهـــه إلى إحـــدى الطـــاولات المتراصة أمـــام المقهى ، وفوجئ (ياســـر) بحـــالته ، وأســـرع يسأله فى دهشـــة وانزعـــاج وهـــو يقـــف أمامه ممسكًا بالصـــينية فارغـــة :

ــ ما العبارة يا صاحبى ؟!

وجاءه رد (علاء) بمنتهى الاختناق والغم :

ــ لا شىء يا (ياسر) .. هات الشاى .

ــ قبل الشاى أخبرنى ما بك ؟

ــ البومة السمينة .

انفلتت هتفة (ياسر) بانزعـــاج :

ــ ما لها ؟

ــ صبحتنى بدُش وسخ .



تنفّس القهوجى الشاب الصعداء :

ــ يا أخى .. حسبتها ماتت وتركتنا لغربانها المسعورة .

ــ الله يحرقها هى وغربانها .

ــ غربانها نعم .. هى لا .. فرغم أنهم أولادها إلاّ أنها أرحم منهم ، فهى فى النهاية لا يهون عليها تشريد شاب ما مهما تأخر فى سداد الإيجار ، بينما هم لو كان الأمر بأيديهم لقذفوا بمن يتأخر فى سداد الإيجار شهرًا واحدًا من سطح الطابق الخامس .

ــ ربنا يتوب علينا منها ومنهم .

ــ يا رب .. فطرت ؟

ــ نفسى مسدودة .

ــ افتحها لك حالاً .

واستدار (ياسر) منصرفًا .. عدة دقائق وكــان يعود بصنية عليها خمسة سندوتشات فول وفلافل وطبق مخلل صغير ، وضعها أمام صاحبه قائلاً بحنو وبشاشة :

ــ أحلى إفطار لأحلى صعيدى ..

وكان رد (علاء) بعبوسه دون أن يلتفت إلى الطعام :

ــ قلت لك نفسى مسدودة يا (ياسر) .

ــ يا عم (علاء) .. يا عم (علاء) روّق نفســك وابتسم للحياة كى يفرجهــا ربنــا عليك .. الغضب يجلب النحس ووقف الحــال .. هيا يا صاحبى .. هيا بسم الله .

وانتظر (ياسر) أن يستجيب صاحبه له ، ولكنـــه لم يفعل ، فما كان منه إلا أنه أردف قائلاً له فى رجاء :

ــ هيا يا صاحبى إذا كــان لى عنــدك خاطر ، هيا كى ألتفت لعملى .. هيا .

ولم يملك (علاء) إلاّ أن يمـد يده إلى الطعام مبسملاً ، فابتسم (ياسر) راضيًا ، وارتفع صوت زبون صعيدى يناديه ، فاستدار إليه صائحًا بابتهاج وخفة دم :

ــ حاضر .. حاضر على الهواء مباشرة .

واستدار ملهيًا فى عمله حتى إذا ما فرغ (علاء) من تناول إفطاره جاءه بالشاى والماء .. وضعهما أمامه على الطاولة ، ثم

مال عليه داسًا علبة سجائر سوبر فى جيب قميصه ، وهمَّ (علاء) بأن يرد يده بعلبة السجائر ، فما كان من (ياسر) إلا أنه ضغط علبة السجائر فى جيبــه بشدة وهو يقســم عليه بالعيش والملح بألا يردها ، ولم يدر (علاء) بماذا يجيبه ، بينما أردف (ياسر) مداعبه بخفة ظله :

ــ تصدّق بالله يا صاحبى ، لا بيت أم (يوسف) ، ولا شارعها ، ولا هذه العزبة كلهـــا ، ولا الدنيا كلهـــا يمكن أن يكون لهم طعم بدونك .

ارتسمت ابتسامة مرارة على شفتى (علاء) وهو يجيبه ساخرًا من نفسه :

ــ القرد فى عين صاحبه غزال يا عم (ياسر) .

فوجئ (ياسر) ، وانفلتت هتفته فى استنكار باسم :

ــ قرد ؟! أنت قرد يا ابن الشيخ (ربيع) ؟! هذه هى مشكلتك يا صاحبى ، أنك لا تعــرف قيمة نفسك ..

ومد كفيــه محتضنًا بهما وجــه صاحبه الصعيدى المتجهم ، ومضى قائلاً له :

ــ يا صاحبى افهم .. الدنيا شابة وأنت الجدع ، تشوف رشاقة خطوتك تعبــدك ، لكن أنت لو بصـيت لرجليك تقع .. فهمت .. فهمت يا جوهرة شباب الصعيد .

وبابتسامة حلوة صافية ، وبمنتهى الحنو وضع (ياسر) قبلة حميمة تفيض حبًا على جبينه ، واستدار منصرفًا ، تاركًا صاحبه يشيّعه بنظرة تكاد تفيض بالدموع من فرط تأثره ، بينما تحركت يده لا إراديًّا إلى جيبه لتلتقط علبة السجائر ، ولكنه سرعان ما انتبه إلى نفسه لتتوقف يــده قبل أن تلمس العلبــة .. أوقفتها وخزة مؤلمة فى كرامته .. أبت كرامته أن يلمسها ، ووجد نفسه يلتفت أيضًا إلى كــوب الشاى المستقر أمامه ، ويرنو إليــه بإحساس مرير .. أحساس بالمهانة ..

إحساس قذفه بحزمة تساؤلات مريرة شقت وجدانه كله شقة سكين مسنون فى لحم مهترئ .. كيف يقبل هذا على نفسه ؟! كيف يقبل أن يعيش عالة على شاب مثله ؟! كيف ارتضى لنفسه هذا طوال الأسبوعين الماضيين ؟! أن ينفق صديق له على طعامه وشايه وسجائره ؟!

كيف قبل هذا على نفسه ؟! كيف ؟! صحيح أنه صديقه الوحيد الذى خرج به من « القاهرة » كلها منذ نزوحه إليها العام الماضى من

« أسيوط » ، والـــذى يحبه أكثــر من نفسه ، والذى جعلت منه سكناهما معًا فى بيت أم (يوسف) شقيقًا لا صديقًا ، وصحيح أن أزمته المالية هذه ما هى إلا ظرف طارئ يمر به لأول مرة منذ مجيئه إلى « القاهرة » بسبب توقف مشروع المدينة السكنية الجديدة الذى كان يعمل به عاملاً مساعدًا باليومية مع أحد مقاولى التشطيبات المعمارية لأسباب لا يعلمها ، وأنه قبل هذا الظرف المفاجئ كان يكسب جيدًا ، وكان نزيهًا ، وكان ينفق أكثــر مــن صــاحبه ، بل كثيرًا ما كان يعرض عليه أية نقود قد يكون فى حاجة إليها ، ولكن هــذا كله لا يعنى أن يثقل عليه إلى هذا الحد ، إلى حد أن ينفق على طعامه وشــايه وسجائره لما يزيد على الأسبوعين ؟

فكيف حدث هذا ؟! كيف هانت عليــه كرامته إلى هــذا الحد ؟! وكيف نسى أن صاحبه ليس بأحســن حظًا منه فى ظروف المعيشة ، وأنه أيضًا شاب فقير بالكاد يستر نفسه ، وإنه يسعى على قدميه لأكثر من اثنتى عشرة ساعة يوميًا كى يأتى بعشرين جنيهًا بالكــاد تكفى مصروفات طعــامه وشرابه وإيجار حجرته وأقساط ثيابه وأحذيته التى يشتريها مستعملة من محــل صغير

بجوار المقهى .. حيــاة شاقة جافة خالية مــن أية ذرة راحــة أو ترفيه ، وكدح مرير طمعًا فى الستر فقط ، ومما يزيدها مرارة على صاحبه أنه شاب جامعى يحمل ليسانس آداب ، أى أن هذا ليس مكانه ولا معيشته ولا كيانه الــذى يستحقهم ، ولكنه حال شباب « مصر » أجمعين ـــ عالمهم وجاهلهم ـــ الذين ألقى بهم نظام حكم فاسد وظالم فى خلاط البؤس والضياع دون ذرة رحمة أو شفقة ، فكيف نسى هذا كله ؟! كيف نسيه إلى الحد الذى جعله يلقى بحمله كله على كتفى صاحبه وهو يفوقه مرارة وإحباطًا وبؤسًا ، ولا يتميز عنه الآن سوى بالعشرين جنيهًا التى يقبضها ثمنًا لكدح يوم كامل ؟!

كيف هان عليه هذا ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

انطلقت مــن قــاع أعماقه زفــرة حارقة زادته اختناقًا فوق اختناقه ، ووجد نفسه يعيد يده بعيدًا عن علبة السجائر .. تلفّت حوله بحثًا عن وجه من وجــوه مقاولى المعمار الذين يرتادون

المقهى .. لم يجـد حتى واحـدًا منهم ، فكالعـادة هم لا يأتون إلاَ بعد صلاة العشاء .. ازداد اختناقًا .. همّ بأن ينهض مغادرًا المقهى دون أن يدرى له وجهة فإذا بـ (سمر) بوجهها البيضاوى الخمرى الساطع بنضارة سنواتها العشرين ، وبعودها اليافع المخروط بأنوثة شهية ، وبعباءتها السوداء الضيقة التى تبرز كافة تضاريسها بفتنـة مثيـرة ، إذا بهـا مقبلة من بعيد عصبية الخُطى والملامح ، وقد أطبقت عليـه بعينيها الواسعتين الكحيلتين بمنتهى الغضب والتحفُز .. تسمّر فى مكانه وعيناه تتلقاها باختناقه حتى مرت أمامه ، وظل متسمرًا فى مكانه وعيناه عليها حتى انعطفت يمينًا فى أول شارع جانبى صادفها ، فنهض ماضيًا فى أثرها ..

★★★

الفصل الثانى

مضت (سمر) ومن خلفها (علاء) يجوسان فى شوارع وأزقة عزبة (شلبى) حتى خرجا إلى كورنيش ترعة « الإسماعيلية » المارة أمام العزبة .. اعتلت الفتاة رصيف الكورنيش ، وأبطأت فى خُطاها حتى لحق بها (علاء) ، وما كاد يفعل حتى كانت تبادره قائلة بكل ما بداخلها مـن غيظ مكظـوم وهى تسيرإلى جـواره :

ــ حمدًا لله على السلامة .

وباختناقه الذى لم يفارقه جاءها رده :

ــ الله يسلمك .

ــ أين كنت طوال الأسبوع ؟

ــ كنت فى البيت .

ــ البيت ؟! أى بيت ؟!



لم يجبها ، ولم يلتفت إليها ، فقد تسمرت عيناه على يدى بائع عرقسوس يسير إلى جوارهمــا وهــو يواصــل دق صاجاته ببعضها دون توقف .. دقات الصاجات العنيفة المتواصلة نزلت على مسامعه وكأنها دقات جنائزية زادته اختناقًا .. سارع برفع عينيه إلى وجه البائع بعصبية كى ينهره ويوقفه عن الدق ، فإذا بالبائع رجل عجوز ضامر الوجه ، وإذا بوجهه الأسمر المعروق شبه متفحم ، وكــأن الشمس قد شوته قبل أن تهم بالرحيل ، وإذا به يتصبب عرقًا وكأنه يحتضر من ثقل إبريق العرقسوس الضــخم الجــاثم على صــدره المكشوف ، والذى لا يقل عن خمسين كيلو جــرام وزنًا .. انقلب ضــجره إشفاقًا غامرًا على البائع ، وابتلع الكلمــة التى كــاد ينهــره بها لينتبــه على هتفة (سمر) الغاضبة وقــد استفزها عدم رده عليها ، وعدم التفاته إليهــا :

ـ (علاء) ! ما هذا ؟! أنت تتجاهلنى ؟! أكلمك وتتجاهلنى ؟! ونعــم الاحتــرام .. أهــذا هــو ما عدت به لى بعــد أســبوع غيــاب ؟!

فوجئ بغبائها .. كظم غيظه ، وعاد يجيبها باختناقه الذى زاده حال بائع العرقسوس العجوز :

ـ أخبرتك بأنى كنت فى البيت .

استفزتها أكثر تكرار إجابته غير المقنعة لها ، فكان انفجارها وهى تجاهد فى خفض صوتها حتى لا تلفت انتباه المارة من حولهما :

ـ وتكررها علىّ ؟! فى البيت ؟!

أى بيت ؟!

أى بيت يا عم (علاء) ؟!

أى بيت هذا الذى تحبس نفسك فيه أسبوعًا وتتركنى بلا حس أو خبر ؟!

أسبوع يا (علاء) ؟!

أسبوع كامل لا أراك ولا أسمع منك كلمة ؟!

أسبوع كامل لا أعرف عنك ولا تعرف عنى شيئًا ؟!

أسبوع كامل لا تطمئن علىَّ ، ولا تطمئننى عليك ؟!

يا قلبك يا أخى !!

أيه ؟!

رخصت عليك ؟!

أم راحت علىَّ ؟

أم ما هى الحكاية بالضبط ؟

أجبنى .. ارحمنى وأجبنى .. قل لى شيئًا يريح قلبى الذى شويته بدون رحمة يا عم (عـــلاء) .. يا صعيدى يا شهم .. يا ابن الأصول ..

فوجئ (عـــلاء) بثورتها إلى هذا الحد ، وفوجئ بها تتوقف عن السير محدقة به بجم غضبها ، وبدت مثيرة للشفقة ، فأسرع يحاول تهدئتها بارتباك ورجاء :

ــ اهدئى يا (سمر) .. اهدئى وواصلى السير حتى لا تلفتى أنظار الناس لنا .. هيا .. هيا يا (سمر) ..

ــ (سمر) ! وهل تركت فيها (سمر) يا عم (علاء) .. أنت نشفتَ دمى .. طيّرت النوم من عينى سبعة أيام بلياليهم .. جعلــت ظنونى وخوفى عليــك يفترسوننى ، ويلتهمون عقلى .. جعلتنى فُرجة لكل سكان « عزبة شلبى » وهم يشاهدوننى أهرس شوارع وحوارى العزبة بقدمىّ طوال الأسبوع كالمجنونة ، وأمُر أمام المقهى أكثر من عشرين مرة فى اليوم الواحد ، ولولا أن كل زبائن المقهى مـــن العزبة وإخوتى وأولاد عمى من بينهم لكنت سألت (ياسر) عنك ، والله العظيم كدت أُجن وأفعلها أكثر من مـــرة ، فلماذا فعلت بى هذا ؟! لماذا ؟! إلى هذا الحد هُنت عليك ؟! إلى هذا الحـــد ؟! وأين كنت حتى تستطيع نسيانى هكذا ؟! أين كـــ ....

ولم تكملهـــا .. بترتها صرخة الفتى الخفيضة باختناق مميت يكاد يزهق روحه :

ــ كنت فى زنزانة أم (يوسف) يا (سمر) ، كنت فى زنزانة أم (يوسف) .

فوجئت (سمر) ، ووجدت نفسها تسأله ساخرة :

ــ وهلّ قلبتها أم (يوسف) سجنًا .



ــ ليست أم (يوسف) .. ظروفنا السوداء هى التى قلبتها .

ومسح وجهه بيده فى حركة عصبية سريعة ، ثم استطرد يسألها بانفجاره :

ــ هل سبق لك أن دخلتى بيت أم (يوسف) .

ــ لا .. لا أنا ولا أية بنت فى العزبة لأنه معروف بأنه بيت العازبين .

ــ بيت أم (يوسف) به ثمان شقق ، كل شقة ثلاث حجرات ، والحجرات غير مطلية ، وغير مبلّطة ، وليس بها سوى أسرة حديدية صدئة مثل أسرة السجون ، وكل حجرة يسكنها شابان ، وهناك حجرات يسكنها ثلاثة أو أربعـة وربما خمسة شباب ، ونصف هذا الشباب على الأقل يحمل شهادات جامعية ومتوسطة مثلى ، ونصفهم عاطل لا يجد عملاً ، وثلثيهم على الأقل لا يأكل سوى الفول والطعمية ، ومنهم من لا يستطيع شراءهما ويعيش على مساعدات زملائه فى السكن .. هذا هو بيت أم (يوسف) ، فهل يوجد أى فرق بينه وبين السجن ؟! لا أظن ، وإذا كان هناك فرقًا ، فهل تعرفين ما هو ؟

الفــرق فى أنه أكثر ظلمًا من سجون الحكومة لسبب واحد ، وهو أن كل من فيه شباب طاهر برىء شريف وليسوا مجرمين مثل نزلاء سجون الحكومة .

بُهتت (سمر) ، وانقلب كل غضبها وغيظها وعصبيتها ذهولاً طاغيًا ، ووجدت نفسها تغمغم بجم ذهولها :

ــ معقــول !!

وكان رد الفتى بمنتهى المرارة :

ــ لا ، ليس معقــولاً ، بل موجودًا .. هــذا الــذى أصفه لك موجود .. واقع .. واقع موجود بينكم فى العزبة ، وتمرون عليه ليل نهار .

ــ وكيف يتحمل هذا الشباب كل هذا المــرار ؟!

ــ وماذا يفعلون ؟ أيسرقون كى يخرجون من هذا المرار ؟

إنهم لم يقصروا فى جهــد .. الذين لا يعملون منهم لا يكفون عن البحث عن عمل .. أى عمل ، ولو كان فى جمع القمامة .. يبحثون ليل نهار بلا هوادة وبلا تأفف من أى عمل ولو كانوا من حملة الشهادات الجامعية .. ووالله العظيم لو أن جهودهم التى

يبذلونها فى البحث عن أية فرصة عمل بُذلت فى أى مشروع لصار أنجح مشروع فى العالم ، وأما سعداء الحظ الذين يعملون فهم يتم طحنهم فى العمل لعشر ساعات على الأقل فى اليوم مقابل أجور بالكاد تكفيهم لهذه الحياة العفنة التى يعيشونها ، ولو كان يوجد إنصاف فى هـذه البلد لتحول أقل واحد فيهم بالجهد الذى يبذله فى مجال عمله إلى مليونير فى أقل من عشر سنوات ، ولكن كيف وهم يشقون شقاء العبيد بأجور ما كان ليرضاها العبيد الذين كنا نسمع عنهم فى أزمنة الإقطاع والاستعباد .

مسامير .. مسامير حادة مسمومة شعرت بها الفتاة تتساقط على قلبها مغروسة فيه .. هذه أول مرة تسمع فيها مثل هذا الكلام من فتاها .. وجدت نفسها تتساءل على الفور فى داخلها عن معنى هذا الكلام .. هل يعنى أن فتاها واحد من هؤلاء المساكين البائسين الذين يتكلم عنهم ؟

معقول هذا ؟!

لقد عرفته منذ سبعة أشهر .. لفت نظرها بوسامته وأناقته ، وحين جمعته بها الصدفة أمام مخبز العيش البلدى بالعزبة وهو يتزاحم لشراء خبزه ذات صباح ، ولمحهـا عاجزة عـن شراء

خبزها بسبب التزاحم الشديد على المخبز ، أسرع ينقذها بشرائه لها .. لحظتها اكتشفت مدى شهامته وأدبه ، وكانت بداية قصة حبهما التى راحت تنمو وتكبر يومًا بعد يوم حتى بلغت شهرها السابع يـوم الأحـد الماضى .. سبعة شـهور وهى تتباهى بين صديقاتها فى العزبة بوسامة حبيبهـا وشياكته وشـهامته وأدبه وعزة نفسه ، ثم تُفاجأ الآن بأن هذه الوسامة والشياكة وعزة النفس يخفون تحتهم بؤسًا وفقرًا وضياعًا يقارب بؤس وفقر وضياع أولاد الشوارع .. كيف ؟!

كيف هذا ؟!

وكيف لم تكتشف هذا من قبل ؟!

كيف ؟!

صحيح أنها تعرف حبيبها منذ سبعة أشهر ، ولكنها أبدًا لم يسبق لها أن سمعت منه مثل هذا الكلام ، بل دائمًا ما كانت تراه نزيهًا نظيفًا أنيقًا معتزًا بنفسه ، وكأن الفقر لم يقترب منه يومًا ، وأما سكناه فى حجرة مشتركة فى بيت أم (يوسف) فدائمًا ما كانت تفسرها بأنها ليست عجزًا منه عن استئجار شقة كاملة لنفسه ، بل ذكاءً منه فى توفير إيجارها الذى لن يقل عن خمسمائة جنيه ،

فضلاً عن شعوره بالوحدة التى ستنتظره فيها ، وربما اتقاء منه لشبهة السُكنى بمفرده ، وخاصة أنه صعيدى ، أى أشد من يعتز بسمعته ، ويخاف على كرامته ، ثم إن زملاءه الشباب الذين تراهم وهم يغادرون أو يدخلون بيت أم (يوسف) دائمًا لا يقلون عنه نظافة ولا أناقة ، ودائمًا يبـــدو عليهم أيضًا النزاهة وعزة النفس ، فهل كل هـــذا الشباب الوجيـــه النزيه تخفى وجاهته ونزاهته تحتها كل هذا البؤس والفقر والضياع ؟!

كيف هذا ؟!

كيف ؟!

وإذا كان بيت واحد مثل بيت أم (يوسف) يأوى ما يزيد على الثمانين شابًا بهذا الضياع فكم شابًا فى « مصر » ضائعين هكذا ؟! كم شابًا ؟! وإذا كان شباب « مصر» قد ضاعوا هكذا ، فماذا ينتظرها ؟

ماذا ينتظرها ؟!

مـــاذا ؟!

وغمرها إحساس داهم بالذهول والفزع ، ولكنها ما لبثت أن أفاقت على صوت شبابى يقول لهما فى أدب :

ــ تفضل يا باشا .. تفضلى يا آنسة .

التفتا إليه ، فإذا به قهوجى شاب يشير إلى الطاولات الخشبية المتواضعة العارية المتراصة على كورنيش الترعة ، وبإلحاح مهذب مضى يواصل دعوته لهما :

ــ تفضلا .. تفضلا .. المكان مكانكما .

ودون تفكير وجدت (سمر) نفسها تجذب (علاء) من يده قائلة بصوت خفيض حنون يشبه الهمس :

ــ تعال يا (علاء) !

أسرع يجذب يده من يدها متسائلاً فى ضيق وعصبية :

ــ ماذا تفعلين ؟!

ــ سنجلس .. تعبت من المشى .

ــ لكن ....

وتوقفت الكلمات فى حلقه من شدة الحرج ، فكيف يخبرها بأنه لا يملك أية نقود فى جيبه ؟

ولكنه لم يحتج لأن يخبرها ، فقد ظهر لهما شاب آخر ثلاثينى العمر ، بائس المظهر رغم وسامته ليبادرهما قائلاً بنفس الأدب وهو يشير إلى أقرب الطاولات لهما :

ــ تفضل يا أستاذ .. تفضلى يا آنسة (سمر) .

وفوجئ (علاء) ، بينما أسرعت (سمر) تبتسم للشاب قائلة :

ــ إزيك يا (سامح) ؟

ــ الحمد لله .. تفضلا .

التفتت إلى (علاء) ، فإذا به يحدقها بدهشته الصعيدية الحادة .. أسرعت تضغط يده فى يدهـا خلسة كى لا يحرجها أمام الشاب ، فلم يملك إلا أن يتحرك معها خلف الشاب ، ويجلس بها إلى الطاولة التى قادهما إليها .. طلبا كوبى شاى ، فانصرف الشاب ، بينما أسرعت (سمر) تقول لــ (علاء) بصوتها الخفيض وقد غمره الأسى :

ــ (سامح) جارنا .. يسكن فى الشقة المجاورة لنا .. شاب طيب وابن حلال .. كان يعمل موظف أمن فى شركة حكومية

باعتها الحكومة فى الخصخصة ، وفقد وظيفته مع نصف الموظفين والعمال الذين طردهم الرجل الأجنبى الذى اشترى الشركة دون أن يعطيهم جنيهًا واحدًا ، ولم يكن عمنا (سامح) يملك أية نقود يقاضى بها الرجل ابن الحرام ، ولم يكن أمامه إلا الإسراع بالبحث عن عمل آخر ينفق منه على كوم اللحم المعلق فى رقبته ، زوجته وأطفاله الأربعة ، ولكن بحثه هذا دام أكثر من سنة ، اضطر خلالهـا للاقتراض تارة ، وبيع قطع من أثاث بيته تارة أخرى ، حتى جاءته فـكرة استغلال كورنيش الترعـة هكذا ، واستطاع أن ينفذها برشـوة موظفى إشغالات الحى بألف جنيه شهريًا .

دُهش (علاء) :

ــ ألف جنيــه مقــابل السماح له ببيع شــاى وحلبة على الرصيف ؟!

وأرســل بنظرته الدهشة إلى (سامح) وهو يقـف بجسده النحيل ووجهه المجهد أمام أحد الزبائن الجالسين ، وأردف قائلاً بمنتهى الأسى والمرارة :

ــ يعنى الحكومة باعته فى الأولى ، وتمص دمه فى الثانية !

ــ وما الجديد فى هــذا ؟! حكوماتنا الإنسانية من ربع قرن وأكثر تعيش على دم الغلابة سواء مصته أو باعته .

هز رأسه بكل مرارته :

ــ عندك حق .

وجاءهما الشــاب العشرينى العمر بالشاى .. وضعه أمامهما وانصرف ، وقبل أن تأخذ (سمر) رشفة واحدة من شايها كان (علاء) قد أجهز على كوبه كله مما جعلها تبتسم ، وهى تنظر إلى الكوب الفــارغ ، فلم يملك هــو أيضًا إلا أن يبتسم قائلاً بصعيديته المضحكة :

ــ حوت صعيدى .

وكان ردها على الفور بابتسامتها الساحرة :

ــ أحبــه .

ــ ماذا تحبين فيه ؟!

ــ قلبــه .

ــ قلبه فقط ؟!

ــ وهل فيه غير قلبٌ ؟!

وبكل ما فى قلبها من حب ورهافة احتضنت يديه بيديها مردفة :

ــ يا (لوءة) .. يا حبيبى .. يا نور عينى .. أنت كلك على بعضك لست سوى قلب يمشى على قدمين .. قلب كبير أبيض كاللبن الحليب .

ضــحك لأول مــرة فى يومه كاشفًا عن صفى أسنانه القوية المتناسقة الناصعة البياض ، ثم كان رده :

ــ إذن فهذا هو السر .

دُهشت :

ــ أى سر ؟!

ــ أن بياض قلبى جعلك لا ترين غبرة شكلى .

أسرعت تنهره بحدة :

ـ لا تقل هذا على نفسك .. أنت لست أغبر .. أنت قمر .. نعم قمر ، وإذا كان على سمرتك ، فالسمرة نصف الجمال .. أنت فى منتهى الوسامة ، الحكاية فقط أن ظروفك وحالتك النفسية التى تمر بها الآن لا تجعلك تهتم بنفسك ، وهذا خطأ منك ، فليس معنى أن تضطرب ظروفك قليـلاً ، أو تمر بك ضائقة طارئة أن تهمل نفسك بهذه الطريقة .. الناس كلها تمر بنفس الظروف ، وأنت نفسك أخبرتنى من لحظات فقط أن شباب البلـد أجمعين يمرون بنفس هذه الظروف ، إذن فــ ....

أسرع يقاطعها وقد ارتد إليه اختناقه أشد مما كان :

ـ يا (سمر) .. يا (سمر) .. أنا الآن لست فى الناس ، ولا فى شباب البلد .. أنا فى أمى وإخوتى .. فى سبعة أفواه تريد أن تأكل وتشرب .. فى كوم لحم معلقا فى رقبتى .. وأخى الوحيد الذى كان يساعدنى فى الإنفاق عليهم أخذوه فى الجيش .. يعنى الحمولة كلها حمولتى وحدى .. حمولة ثقيلة يا (سمر) .. حمولة ثقيلة يا بنت الناس .

وكان رد (سمر) فى دهشة واستنكار :

ـ ثقيلة ؟! ثقيلة على من يا مسلم يا موحد بالله ؟! عليك أم على الله ؟!

فورًا انقلبت ثورته خشوعًا :

ـ حاشا لله يا (سمر) .. حاشا لله .. لكن ...

ـ لكن ماذا يا ابن الناس ؟ يا ابن الناس الأرزاق على الله ، سبحانه وتعالى لم يخلق دابة على الأرض بدون رزقها ، وأنت مسلم وموحِّد بالله ، ولا يصح أبدًا أن تنسى هذا .

ـ أستغفر الله العظيم .. أستغفر الله العظيم .

هكذا هدأ قلب الفتى ، وانطفأ اللهيب الذى كاد يلتهم أعصابه وجوارحه ، ومضى يكرر استغفاره مطرقًا خاشعًا مطمئن القلب .. لعنة الله على الشيطان ، أنفاسه نار تشوى بلا رحمة ، ووسوسته تطمس الأبصـــار .. انتبـــه على نـــداء فتاته تنبهــه بحنوها وابتساماتها الساحرة :

ـ أيه !! أين ذهبت يا قمر الصعيد ؟!

رفع وجهه إليها وقد ارتد إليه صفاؤه .. وجد نفسه يتفرس وجهها بنظراته الباسمة فى شىء من الدهشة والتساؤل ، فكان سؤالها :

ـ ماذا يا نجم ؟ هل تبحث عن شىء ضاع منك فى وجهى ؟

ابتسم لفطنتها :

ـــ أبحث عن جواب لسؤال يحيرنى .

ـــ وما هـــو ؟

ـــ من أين لطفلة مثلك بهذا العقل ؟!

ابتسمت فى إطراء ، ثم كان جوابها :

ـــ يا عم (لوءة) أولاً أنا لست طفلة .. أنا عندى 20 سنة ، أى أصغر منك بخمس شمعات فقط .. ثانيًا معى دبلوم تجارة مثلك ، أى متعلمة ومتنـــورة .. ثالثًا لا علاقة للعقـــل بالسن وإلاّ كان (توبة الفيومى) الذى يملأ العزبة جريًا ليل نهار وهو عاريًا كما ولدته أمه أعقل منك بحكم أنه أكبر منك بعشرين سنة على الأقل ، ثم إن ....

أسرع يقاطعها هاتفًا ضاحكًا :

ـــ كفى .. كفى .. نورتى المحكمة يا خالة (سمر) .

ـــ إذن اعترف بأنى أعقل وأكبر منك .

ـــ معترف ، والله العظيم معترف ، أم تحبين أن أضرب دماغى فى سور الكورنيش هذا كى تصدقى أنى معترف .

ـــ لا .. خسارة السور .

وانفجر الاثنان ضاحكين .. إنها أول ضحكة تخرج من قلبيهما معًا منذ أيام طويلة موصولة .. راحا يضحكاها ، ويمدان فيها من قلبيهما حتى وجد (علاء) نفسه يحتضن يدى حبيبته بيديه بمنتهى الحنان ، وينظر فى عينيها بكل الحب والامتنان قائلاً :

ـــ شكرًا يا (سمر) .

ـــ شكرًا على ماذا يا حبيب (سمر) ؟!

ـــ على هذا الضحكة التى لم أضحكها منذ شهور .

ـــ أنت الذى تفعل هذا بنفسك .

ـــ لا أحد يقول يا رب أتعسنى .

ـــ يا حبيبى .. يا حبيب قلبى .. المسألة بسيطة .. اضحك للدنيا تضحك لك .

وما إن قالتها حتى وجدت نفسها تشرد مع فكرة مفاجئة طرأت لها ، وما هى إلا وهلة حتى كانت تهتف به بمنتهى الحماس :

ـــ عـــلاء !

دهش لأمرها :

ـــ عين (علاء) .

ــ جاءتنى فكرة شغلانة لك .

ــ الحقينى بها .

ترددت قليلاً ، ثم قالت :

ــ هى شغلانة غريبة عليك .

أسرع يستحثها بمنتهى اللهفة :

ــ يا (سمر) .. يا (سمر) تكلمى ! أية شغلانة ؟!

غالبت ترددها ، ثم أجابته :

ــ على بعد ثلاث أو أربع محطات من هنا يوجد حى اسمه « الخصوص » .

ــ أعرفه .

ــ فى هذا الحى ، وعلى شاطئ نفس هذه الترعة تقف عربات « سولار » يدوية يجرها حمار أو حصان ، هذه العربات يقف بها شباب يشترون « السولار» من سيارات نقل منتجات البترول التى تمر أمامهم على الطريق ، فما رأيك فى أن تقف بعربة مثلهم ؟

ــ وأشترى « السولار» مثلهم ؟

ــ نعم .

ــ وماذا بعدما أشتريه ؟

ــ ستسلمه لصاحب العربة التى تقف بها .

ــ تقصدين أننى سأقف لحساب صاحب العربة .

ــ هو ليس صاحب عربة واحدة .. هو تاجر « سولار» بالجملة ، ويمتلك عدة عربات يقف بها شباب مثلك ، وهو الذى سيعطيك المال الذى ستشترى به « السولار» ، والعدة التى ستعمل بها ، أى أنك ستعمل عنده بالأجر ، وعلى ما أسمع الأجر مجزى .

أطرق (علاء) دارسًا الفكرة فى رأسه ، فإذا بها تروق له ، فما كان منه إلا أنه أسرع يسألها :

ــ وهل تعرفين أحدًا من هؤلاء التجار ؟

ــ خالى .

ــ خالك ؟!

ــ نعم .

ــ وهل يقبلنى وأنا جاهل بالشغلانة ؟

ــ يا حبيبى الشغلانة بسيطة ، وسيعلِّمها لك فى أقل من ساعة .. المهم ما رأيك أنت ؟

ــ رأيى ؟ أليس فيها بنكنوت ؟

ــ فيها كثيرًا .

ــ إذن أنا تحت أمرك وأمر خالك المحترم يا أحلى محترمة .

★★★

الفصل الثالث

استقبل المعلم (شحات) (علاء) بترحاب وود بالغ إكرامًا لـ (سمر) ، فهى أقرب بنات أختيه إلى قلبه .. أجلسه أمامه فى مكتبه بمدخل مخزن السولار .. قبل أن يدخل المكتب استعرض (علاء) المخزن بنظرة سريعة .. حوش كبير يقارب الألف متر مربع غير مسقوف وغير مبلط ، فقط أرض ترابية مسورة بسور مرتفع يقارب الستة أمتار ، ومن داخل السور تتزاحم فناطيس صاج ضخمة تقف عمودية فوق الأرض الترابية المشربة بالسولار ، وبراميل صاج لا يزيد ارتفاعها عن المترين ، ولا تزيد سعتها عن المائتى لتر ، وچراكن بلاستيكية سعة العشرين لتر ، وخراطيم بلاستيكية مختلفة المقاسات ، وأقماع صاج مختلفة الأحجام ، وعربات سولار يدوية ، ونحو عشرة عمال يقومون بتفريغ حمولات العربات اليدوية فى الفناطيس الضخمة ، ونحو خمسة عمال آخرين منهمكين فى تفريغ ناقلة سولار ضخمة فى أحد الفناطيس ، وأمام المكتب وقفت سيارتان ملاكى مرسيدس

« عيون » إحداهما سوداء والأخرى رمادية ، وإلى جوارهما وعلى باب المكتب مباشرة وقف كلب ضخم بنى اللون وقد وضح من هيئته ووقفته أنه من كلاب الحراسة المدربين ، فقد وقف منتصبًا متحفزًا يجيل عينيه فى أرجاء المخزن بمنتهى اليقظة والتحفز ، وعندما لمح (علاء) مقبلاً مع العامل الذى استقبله بالبوابة راح يزوم فى تحفز وتساؤل فما كان من العامل إلا أنه أسرع يربت عليه بحنو قائلاً :

ـ اهدأ يا (عنتر) إنه ضيف .

وهدأ (عنتر) ليمر (علاء) إلى المكتب بسلام ، وليجد المعلم (شحات) يجاس خلف مكتبه الذى يشبه مائدة مطبخ قديمة متسخة ، وأمامه يجلس شاب وكهل ، أما الشاب فقد كان قوى البنية ، فظ الملامح ، يرتدى قميصًا وبنطالاً ثمينين ، ويحيط بعنقه سلسلة ذهبية ضخمة ، ويرتدى فى أصابع يديه مجموعة خواتم ذهبية ضخمة أيضًا ، وفى معصمه الأيمن أسورة ذهبية عريضة ، وفى معصمه الأيسر ساعة « رادو » ضخمة ، ويمسك فى يمناه بسيدالية ثمينة تضم مجموعة مفاتيح يبرز من بينها مفتاح سيارة ، وأما الكهل فقد كان رجلاً ضخمًا ، سمين الوجه ،

يرتدى جلبابًا صعيديًّا ثمينًا ، وعمامة بيضاء ناصعة ، ورغم فخامة الرجلين إلا أن وجهيهما كانا خاليين من أية نضارة بسبب فظاظتهما الواضحة ، والتى بسببها أيضًا لم يستطعا إخفاء تذمرهما مــن قطع (عـــلاء) لحوارهما مع المعلم (شحات) بدخوله المفاجئ ، فقد ردا تحية (علاء) بفتور وإهمال ، بعكس المعلم (شحات) الذى استقبله بحميمية وترحاب ، ودعاه إلى الجلوس ، فكـــان فى دعوته هـــذه إنهاء لحوارهما وزيارتهما ، فنهضا مستأذنين المعلم فى الانصراف بتجهـم ، فنهض الأخيـر مصافحهما ، وقائلاً لهما ببشاشته :

ــ تفضـــلا ولنـــا معًا كـلام آخــر يا معلم (خلـــف) وأنت يا (رفعت) باشا .

فكان رد الشاب بمنتهى الصلف والعجرفة :

ــ أنا لست باشا يا معلم (شحات) .. أنا معلم فى السوق .. مثلك .

فما كان من المعلم (شحات) إلا أنه ابتسم قائلاً بشياكة كلها سخرية :

ــ طبعًا معلم وسيد المعلمين .

وانصرف الرجلان ، ولمحهما (علاء) يتحركان بالمرسيدس الرمادية يقودها الشاب ، وسمع المعلم (شـــحات) يسأله عما يشرب ، وبعـــد إلحاح أجابه بأنه سيشرب شايًا ، فأشار المعلم للعامل بأن يأتيه بشاى ، ثم راح يطرح على (علاء) بضعة أسئلة عن بلده وسكنه الحـــالى ، وعمله السابق ، وغيرها من أسئلة التعارف حتى جـــاء العامل بالشاى ، وشربه (علاء) ، فنهض المعلم قائلاً له :

ــ هيا بنا .

قالها وهو يدس طبنجته التى كانت أمامه على المكتب فى جيب صديره الأبيض التى تكشف عنه فتحة جلبابه الرمادى المتواضع ، ثم خرج من خلف المكتب مصطحبًا (علاء) إلى المرسيدس السوداء ، وركب (علاء) إلى جواره تتنازعه الرهبة والدهشة من هذه التجارة التى تبدأ بعربات تجرها الحمير وتنتهى بناقلات عملاقة وسيارات ملاكى بهذه الفخامة ، وتحرك المعلم بالمرسيدس مغادرًا المخزن .. بضعة دقائق وكان يتوقف بها أمام عربة سولار يدوية تقف على شاطئ ترعة « الإسماعيلية » المقابل للـــ « الخصوص » ، وينزل منها قائلاً :

— انزل يا (علاء) .

فعــل (علاء) ، بينما بادر المعلمُ الشاب الطويل الواقف إلى جوار العربة قائلاً :

— السلام عليكم يا (سحس) .

— سلام ورحمة الله يا معلم .

— ها .. ما الأخبار ؟

— الحمد لله يا معلم .

وانحنى المعلم على قطعة خرطوم لا تزيد عن المترين ، والتقطها من فوق الأرض ، وراح يمسحها مــن التراب بيــده بمنتهى التواضع والرفق ، ثم وضعها فى صفيحة الخراطيم ، ثم جال بنظــره على البراميل الأربعة المتراصة إلى جوار العربة ، فإذا بها جميعًا ممتلئة تمامًا بالسولار ، فالتفت إلى (حسين) متسائلاً :

— لماذا لم تفرغها فى العربة ؟

— العربة ممتلئة يا معلم .

شاع الرضا فى وجه المعلم وهو يقول له :

— سأرسل لك أحد العمال بعربة فارغة .. أفرغ فيها البراميل ، ودعه يسحب هذه إلى المخزن .

— حاضر يا معلم .

والتفت المعلم إلى (عــلاء) الذى كــان يقف خلفــه ، قائلاً لــ (حسين) :

— (علاء) سيعمل معنا ، وهو الذى سيستلم منك .

وكان رد (حسين) بود :

— أهلاً يا (علاء) .. إن شاء الله ستستريح معنا .

أجابه (علاء) بابتسامة ودودة :

— إن شاء الله يا (سحس) .

وأرسل المعلم (شحات) بنظرة بعيدة على السيارات المقبلة ، ثم عاد ينظر إلى (علاء) قائلاً :

— اسمع منى يا (علاء) وافهم .

— تفضل يا معلم .

— ثلاثة أرباع السيارات التى تمر من هذا الطريق هى ناقلات لمشتقات البترول ، وجميع هذه الناقلات تعمل بالسولار ، وبعضها

محمل به لنقله من مكان لآخر ، ومعظمها لديها سولار فائض عن حاجتها تريد بيعه ، وكل ما عليك أنك ستقف هنا إلى جوار عربتك ، والناقلة التى تريد بيع هذا الفائض ستتوقف أمامك من تلقاء نفسها ، فتسحب أنت هذا الفائض بأن تدفع بطرف الخرطوم فى الخزان حتى تغمسه فى السولار ، وتشفط بفمك من الطرف الآخر شفطة قوية ، حتى يندفع السولار فى الخرطوم ، فتسرع بوضع الطرف الذى شفطته فى الچركن ، فيندفع السولار فى الچركن ، وهكذا تملأ عدد الچراكن التى يريد السائق بيعها ، فتدفع له ثمنها ــ خمسة عشر جنيهًا لكل چركن ــ من النقود التى سأتركها معك ، ثم تقوم بتفريغ الچراكن فى هذه البراميل ، وعندما تمتلئ البراميل تفرغ فى العربة ، وهذه هى الشغلانة كلها .

وعاد المعلم (شحات) يرسل بنظرته البعيدة على السيارات المقبلة ، ثم أردف قائلاً للفتى :

ــ بقى أن تعرف أجرك .. خمسون جنيهًا يوميًا .. حلوين ؟

فوجئ (علاء) ، وانبثقت فرحته فى قلبه ووجهه وهو يجيبه :

ــ طبعًا حلوين يا معلم .. الله يزيدك من نعيمه .

ــ آمين .

★★★

لم تكد تمر دقائق معدودة على حديث المعلم (شحات) حتى توقفت ناقلة بترولية عمــلاقة أمامهم ، فما كان مــن (حسين) إلا أنه التقط أربعة چراكن وخرطومًا ، وركض نحو خزان وقود الناقلة ، بينما قفز سائقها من كابينتها نحو (حسين) قائلاً :

ــ ستة چراكن يا (سحس) .

وكان رد (حسين) وهو يدفع بطرف الخرطوم فى خزان الوقود :

ــ حاضر يا عم (عبده) .. حمدًا لله على السلامة .

ــ الله يسلمك .

وأسرع (حسين) يشفط الطرف الآخر للخرطوم ، ودفعه فى الچركن ، وملأ الستة چراكن ، وأعطى السائق تسعين جنيهًا ، وانصرفت الناقلة ، فأسرع بتفريغ الچراكن الست فى البراميل ، وإعادة الخرطوم إلى مكانه ، فما كان من المعلم (شحات) إلا أنه التفت إلى (علاء) قائلاً برفقه المعهود :

ــ أرأيت ما فعله (حسين) ؟

وجاء رد (علاء) فى أدب :

ــ نعم يا معلم .. رأيت .

ــ إذن تعامل مع الناقلة القادمة بمفردك .

ــ أمرك يا معلم .

ربع ساعة وتوقفت ناقلة بترولية أخرى ، وأسرع (علاء) يتعامل معها ، ولكنه ما إن وضع طرف الخرطوم فى فمه وشفطه حتى انفجرت بوادر كارثة محققة ، فقد اندفع السولار غزيرًا قويًّا فى فمه وحلقه ليقذف المسكين بالخرطوم بعيدًا ، ويقفز هو أيضًا بعيدًا وقد انفجر سعاله ، واحتقن وجهه ، وبرزت عروقه ، وجحظت عيناه ، وبدا وكأنه يلفظ آخر أنفاسه ، وبدا الأمر مفزعًا ، فإذا بالمفاجأة أن التفت المعلم (شحات) إلى (حسين) متبادلاً معه ابتسامة هادئة ، ثم قال له بهدوء أشد :

ــ تعامل معها أنت يا (سحس) .

ــ حاضر يا معلم .

وأسرع (حسين) يشفط طرف الخرطوم دون أن يصيبه ما أصاب (علاء) ، بينما التقط المعلم (شحات) زجاجة مياه شرب كانت إلى جوار صفيحة الخراطيم ، ودنا من (علاء) قائلاً له بمنتهى الحنو :

ــ لا تقلق يا (لوءة) .. عادى .. هذا شىء عادى .. كلنا حدث لنا هذا فى البداية .. خذ اغسل فمك .. المرة القادمة لن يحدث لك هذا .

وراح المعلم (شحات) يحاول تهدئته وطمأنته بأن هذا لن يحدث له مرة أخرى ..

ولكنه حدث ..

حدث فى المرة التالية وما بعدها .. وظل يتكرر مع (علاء) طوال الليل بعد أن تركه المعلم (شحات) و(حسين) بمفرده ، حتى إذا ما أشرقت الشمس ، وعاد (حسين) ليتسلم ورديته كان صدر (علاء) قد امتلأ بالسولار ، والتهب حلقه وفمه ، ونضبت معدته من تقيؤه المتواصل طوال الليل حتى كاد يتقيأ أمعاءه نفسها .

عـــذاب ..

عذاب لم يذقه الفتى يومًا من لحظة مولده حتى جاء به قدره إلى هنا .. عذاب جعله يكره نفسه ، ويكره اليوم الذى وُلِدَ فيه ، ويلعن الفقر الذى حكم عليه بهذا ، ورغم ذلك كله فوجئ بـــ (حسين) يبتسم قائلاً له بمنتهى البساطة :

ــ يا (لـــوءة) .. يا (لـــوءة) .. كما أخبرك المعلم هذه الشغلانة صعبة فى بدايتهـا فقـط ، لكن مع الوقت ستتعلمها وستتقنها وستحبها .

وجال (حسين) بعينيه على البراميل ، فإذا بها جميعًا ممتلئة .. انســابت ابتسامة إعجاب على شفتيه ، والتفت إلى (علاء) قائلاً :

ــ أصلى يا (لوءة) .. أصلى .

وتأمله بنظرة باسمة ، ثم أردف يسأله :

ــ تبقت معك نقود ؟

ــ نعم .. معى ستمائة جنيه .

ــ هاتها .

ناولها له ، فعدها (حسين) ، ثم سحب منها خمسين جنيهًا ، وناولها لــ (علاء) قائلاً :

ــ خذ يا (لوءة) .. هذا أجرك .

ثم إذا به يناوله عشرين جنيهًا أخرى مردفًا :

ــ وهذه منى تشجيعًا لك .. نهارك أبيض .

وفوجئ (علاء) ، وابتهج قلبه حتى إن عذاب ليلته تبخر كله فى الحال ، وهم بأن يقول شيئًا ، فإذا بـــ (حسين) يسبقه قائلاً بابتسامته وبمنتهى الحنو :

ــ هيا اشتر نصــف كيلــو لبن واشربه لتغسل به جوفك من السولار الشرير الذى شربته ، ثم أفطر ونم ، وسوف تستيقظ فل الفل .. هيا .. أنا فى انتظارك فى السادسة مساءً .

ولم يملك (علاء) إلا أن يجيبه فى حب :

ــ حاضر يا (سحس) .. السلام عليكم .

ــ سلام ورحمة الله .

★ ★ ★



الفصل الرابع

استيقظ (علاء) من نومه على صوت أذان العصر قادمًا من مكبرات صوت المسجد الواقع خلف البيت مباشرة .. ظل ساكنًا فى الفراش محلقًا بعينيه على سقف الحجرة فى ابتهاج للحظات ، وجد نفسه بعدها يقفز من الفراش قفزة فهد عفى .. أقل من ربع الساعة ، وكان ينزل سلم البيت قفزًا حتى استوقفه نداء أم (يوسف) مشبعًا بالتهكم :

ـــ حاج (علاء) !

التفت إليهـا ، فإذا بهـا كالعـادة متربعة فوق كنبة الأنتريه المتواضعة التى تتصدر صالة شقتها فى مواجهــة باب الشقة المفتوح معظم ساعات اليوم .. انفرجت شفتاه عن ابتسامة ناصعة ، وقفز نحوها مقبلاً رأسها ، وقائلاً لها :

ـــ آخر الشهر سيكون معك حسابك كله يا ست الكل .

وقفــز من أمامها مواصلاً نزول السلم ، وتاركها غارقة فى دهشتها .. أول مرة تراه بهـذه الحال منــذ أن سكن لديها قبل

ما يزيد على العام .. أول مرة يلمسها .. مست قبلته على رأسها قلبها .. وجدت نفسها تدعو له فى تسامح :

ـــ الله يسهلك ويهديك يا بنى .

بينما انطلق هو إلى المسجد .. أدى صلاة العصر جماعة .. فى سجوده بين يدى ربه وجد نفسه يدعوه بقلب متعلق به وبرجاء وخشوع جعلا الدموع تفيض من عينيه « ربى الواحد الأحد الذى لا إله إلا هو ولا شريك له .. وحدك تعلم ما فى قلبى .. تعلم إيمانى المطلق بأن غناى وفقرى ، وعزتى وذلى بيدك وحدك .. اللهم بفضل ما زرعت فى قلب عبدك الضعيف هـذا الإيمان .. وبفضل ما جعلتنى من الساجدين بين يديك الطامعين فى فضلك .. افتح لى خزائنك ، واجعلنى غنيًا علامة بين الأغنياء ، وارزقنى عزًا يجعلنى قبلة وملاذًا للضعيف والقـوى اللهــم آمين يا سميع .. يا مجيب الدعاء » ..

وختم الفتى صلاته ، ونهض ماسحًا دموعه .. ومن المسجد إلى (عرفة) البقال بناصية الشارع .. اشترى منه علبتى سجائر « سوبر » ، وعرج على مطعم الفول والفلافل الملاصق

للبقال ، واشترى منه ستة سندوتشات ، وهم بأن ينصرف ، فإذا بالبائع يقول بحدة لسيدة عجوز :

ـ لا يوجد فول بربع جنيه يا ست .

فما كان منه إلا أنه أسرع يقول للبائع فى غضب :

ـ أعطها ما تريد وأعطها الباقى !

وناوله خمسة جنيهات ، والتفت إلى العجوز قائلاً بمنتهى الحنو :

ـ حقك علىَّ أنا يا أمى .

وكان رد العجوز من قلبها :

ـ ربنا يرضى عنك ، ويحقق لك مناك يا ولدى .

مال على رأســها واضعًا قبلة حانية ، وانطلق جريًا ، بينما العجــوز تشيعه بابتســامة رضـا .. انطـلق قاصـدًا مقهى « الصعايدة » .. كالعادة تلقاه (ياسر) متهللاً :

ـ نهارنا أبيض بلون قلوب الصعايدة .

وكان رد (علاء) ضاحكًا وهو يحتضنه :

ـ قلوب الإسكندرانية أكثر بياضًا يا أحلى إسكندرانى .

ـ لماذا يا أجمل صعيدى ؟

ـ لأنها مغسولة بمياه البحر يا أشقر .. تعال .

وجلس إلى أول طـاولة صـادفته أمـام المقهى مستطردًا لـ (ياسر) وهو يفرد لفافة السندوتشات :

ـ هيا يا أشقر بسم الله .

ـ سبقتك يا صاحبى .

ـ لا شأن لى .. لك هنا ثلاثة سندوتشات .. خذها معك .

ووضع السندوتشات فى يده عنوة ، فانصرف بها (ياسر) ، وما لبث أن ارتد إليه بكوب ماء مثلج ، وبعد دقائق جاءه بكوب شاى ساخن ، ووضعه أمامه قائلاً :

ـ أحلى كوب شاى لجوهرة الصعيد كله .

ولكن (علاء) لم يقرب الكوب ، فقد لمح (سمر) مقبلة من بعيد .. عود ورد طازج تجلت فتنته فى نضارة وجهها ، وجرأة عينيها الواسعتين الكحيلتين ، وروعة قوامها الممشوق ، وسحر خطوتها المختالة بأنوثتها وفتنتها .. رقص قلبـه فى هياج من

شـــدة نشوته بجمالها ، ووجـد نفسـه يداعبهـا فى سره وهو يتلقاها بعينيـه مفتونًا : « ألـم تجـدى غيـر صـعيدى مجفف مثلى لتحبينه يا مهرة » ، وما كاد يتمها حتى كانت تقذفه بشعاع باسم متوهج من عينيهـا وهى تمر به وكأنها سمعت دعابته .. انتظر حتى انعطفت يمينًا كالعادة ، ثم أسرع ينهض واقفًا مناديًا (ياسر) ، وإذا به يدس فى جيبـه علبـة سـجائر وعشـرة جنيهات قائلاً :

ــ نهارك فل يا أشقر .

وانطلق جريًا قبل أن يجيبه (ياسر) بأى تعليق .. دقائق وكان يلحق بـ (سمر) فى مكانهما المعتاد على الترعة ، وكان يقبض على يدها بيده هاتفًا بمنتهى اللهفة والسعادة :

ــ وحشتينى .. وحشتينى موت يا غزالة .

وغردت ضحكة (سمر) بدلال ساحر يدير العقل :

ــ غزالة مرة واحدة ؟!

توقف فى مكانه محلقًا بعينيه على وجهها وهى تضحك بفتنة تكاد تذهب بعقله .. انطلقت هتفته :

ــ يا بوووووى .. ماذا أفعل الآن ؟! أرمى نفسى فى هذه الترعة ؟

أسرعت تمسك به هاتفة :

ــ لا .. حرام عليك .. الترعة ليس لها ذنب .

وانفجرت ضاحكة ، وكانا قد بلغا طاولات (سامح) المتراصة على كورنيش الترعـة .. جلس بهـا إلى أول طـاولة خالية صادفتهما .. جاءهما (سامح) على الفور مرحبًا بهما ومتسائلاً عما سيشربان .. أسرع (علاء) يسأل فتاته بابتهاجه :

ــ ماذا يشرب الجميل ؟

وجاءه ردها سريعًا وهى تتفرس عينيه بنظرة باسمة مفعمة بالفرحة والشقاوة :

ــ أشرب من فرحة عينيك هاتين .

ــ فرحة عينى ، وفرحـة قلبى ، وفرحـة عقلى ، وأفراحى كلها .. كلها ملك لكِ يا عصفور الفجر .

ولم يملك (سامح) الذى نسياه واقفًا إلا أن ينبههما لوجوده بابتسامة حلوة وبمنتهى الأدب :

ــ ربنا يسعدكما ببعضكما .



وأسرع (علاء) يعتذر له بابتهاجه :

ـ لا مؤاخذة يا (سامح) .

ـ ولا يهمك يا غالى .

ـ عندك عصير فراولة .

ـ عندى ؟

ـ أحلى شوبين من يدك الحلوة .

ـ من عينيا .

وانصرف (سامح) ، فأسرعت (سمر) تسأل حبيبها :

ـ ها .. ماذا فعل معك خالى ؟

سطع الانبهار فى وجهه ونبرته :

ـ خالك ؟! خالك هذا باشا .. باشا حقيقى .. استقبلنى أحلى استقبال .. وعمل معى الصح .. أحلى صح .

ـ يعنى اشتغلت ؟

ـ اشتغلت وقبضت أيضًا .

ابتسمت فى سعادة :

ـ إذن هذا هو السبب .

ـ السبب فى ماذا ؟

ـ فى شُحنة الجنون الجميل التى أراها الآن أمامى .

انفجر ضاحكًا :

ـ جنون ؟! جنون واحد فقط ؟!

لا يا غـــزال .. إنه جنـــون بشخصـــية خالك ، وجنـــون بالشغل مع باشا مثله ، وجنون بفرج ربنـــا الجميـــل ، وجنـــون بك يا أحلى غـــزال .. جنـــون مـــربـــع .. جنـــون مـــربع مثـــل السلام المربع الـــذى يضـــربونه فى الأفـــراح ، والذى ستضربه « مصـــر » كلهـــا لنـــا فى فرحنـــا بمشـــيئة المولى (عز وجل) .

ولم تتمالك (سمر) ضحكتها ودهشتها :

ـ « مصر » كلها .. نعم « مصر » كلها أيه ؟! عندك مانع ؟

أسرعت تجيبه :

ـ لا .. مانع أيه ؟! مانع مع صعيدى ؟!

وراحــت تمسح دمــوع ضحكها بمنديل ورقى ، وجاءهمــا (سامح) بعصير الفراولة .. وضعه أمامهما وانصرف ، فنظرت الفتاة إلى حبيبها ، قائلة له من قلبها :

ــ ربنا يسعدك ، وما يغيب لك ضحكة أبدًا يا حبيبى .

وتطلعت إلى وجهه بنظرة حانية ، ثم أردفت قائلة :

ــ هل تعلم يا (علاء) بماذا كنت أشعر عندما كنت أراك مخنوقًا حزينًا ؟ كانت الدنيا تسوّد فى عينى .

تلاشت ابتسامة (علاء) وطيفها من وجهه وهو يجيبها :

ــ كان غصب عنى يا (سمر) كان غصب عنى .

وسرح بنظرة أسى على مياه الترعة ، ثم عاد ينظر إليها مردفًا :

ــ هل يمكنك أن تدركى شعور شاب فقير ، غريب عن بلده وأهله ، ليس له من ينفــق عليــه ، أو حتى يقرضه ، يظل بدون عمل يعيش منه لأكثر من ثلاثة شهور ؟

هل يمكنك أن تدركى حاله وإحساسه وهو يرى كل من حوله من رجال وشباب يذهبون إلى أعمالهم ، ليبقى هو وحيدًا حبيس حجرة كئيبة مثــل الزنزانة ليس بها تليفــزيون أو راديو أو أى صوت طوال النهار لأنه لا يملك ثمن تذكرة مواصلات يبحث بها عن عمل ، أو ثمن كوب شاى يجلس به على مقهى ؟

هل يمكنك أن تدركى شعوره والجــوع يعــض فى معدته وأمعائه مثل عقرب هائج لا يرحم ؟

هل يمكنك أن تدركى ذله وهوانه وصاحبة مسكنه تطالبه بأجرة المسكن المتراكمة عليه بألفاظ مهينة ، بينما هو يقف أمامها عاجزًا عن الرد عليها والدفاع عن كرامته بكلمة واحدة ؟

ثم مــاذا ؟

ماذا لو كان هذا الشاب فى رقبته كوم لحم هو وأمه وأخواته الذين تركهم ، وجاء مغتربًا ليدبر لهم قوتهم ؟

ماذا يمكن أن يكون حاله وإحساسه فى هذا الموقف ؟

هذا هـو ما كان يخنقنى يا بنت النـــاس .. هذا هـو ما كان يخنقنى .. وأنا أعلم أنك كنت تعلمين كل هذا ، ولكن أن تعلميه شىء وأن تعيشيه شىء آخر .. أنا كنت أعيشه ، وكنت أُذبح به ، وأقسم بالله العظيم أننى اقتربت من نافذة الحجرة أكثر من مرة لألقى بنفسى مـــن الطـــابق الخامس لولا أن رحمـــة ربى كانت تدركنى فى كل مرة .

ــ يا ساتر !

انفلتت من فم (سمر) بمنتهى الفزع والذهول ، وأردفت بذهولها :

ــ إلى هذه الدرجة ؟!

ــ نعم إلى هذه الدرجة .. وأكثر .

ــ وأين كان إيمانك بالله ؟! هل نسيته وقتها ؟!

وجاءها الرد سريعًا من (علاء) :

ــ حاشا لله .. حاشا لله .

ورغم خشوعه على الفور ، وإدراكه لذنبه إلا أن (سمر) ظلت تتفرسه بعتـــاب حتى نكس رأسه خجلاً ، فما كان منها إلا أنها رفعت وجهه نحوها بأصابعها قائلة :

ــ سأروى لك قصـــة سمعتها من أحد الدعاة بالتليفزيون .. دخل رجل على سيدنا (على بن أبى طالب) رضي الله عنه واستأذنه قائلاً « يا ابن أبى طالب جئتـــك بسؤال يحيرنى » ، فأذن له سيدنا (على) ، فقال الرجل « لو سُد على واحد من بنى آدم بيته فمن أين يأتيه رزقه ؟ » وكان جواب سيدنا (على) بكل بساطة : « من حيث يأتيه أجله » .

★ ★ ★

الفصل الخامس

لم يكد يمضى شهر واحد على استلام (علاء) لعمله حتى صار محترفًا فيه ، بل وسعيدًا به ، وكأنه يمارسه مــن سنين .. فمن لحظــة استلامه لورديته مــن (حسين) وحتى آخر لحظة فيها يظل واقفًا بجوار عربة السولار بمنتهى اليقظة والتحفز ، مطلقًا نظراته الصقرية بعيدًا على السيارات المقبلة ، حتى إذا ما لمح أية ناقلة بترولية قادمة ، أسرع يلوّح لها بيديه بمنتهى الإلحاح وهو يكاد يقطع عليها الطريق بجسده حتى تتوقف فى شــبه إكراه ، فيسارع بغمر سائقها بعبارات الترحاب والمزاح ، ولا يتركه إلا وقد اشترى منه ما استطاع من السولار ، وكانت خشيته من إفلات ناقلة أخرى منه أثناء تعامله مع إحدى الناقلات تدفعه إلى إتمام عملية الشراء بأسرع ما يمكنه .. كان يتحول إلى فهد رشيق هائج سريع القفزات بمجرد موافقة سائق الناقلة على البيع ، ومع ذلك كان يُفاجأ بالسائق يتعجله أكثر وأكثر .. لاحظ ذلك فى كل الســائقين ، ولاحظ أيضًا توترهم جميعًا أثناء تعاملهم معه ، وحتى انصرافهم من أمامه ، مما دفعه لأن يهتف مندهشًا فى أحدهم ذات مرة :

ــ ما الحكاية يا عــم (نصر) ؟! كلكم تتعجلوننى بطريقة عجيبة ، هل نحن نسرق ؟!

وإذا برد السائق العجوز بمنتهى الدهشة والسخرية :

ــ نعم يا حبيبى ؟! نسرق ؟! ماذا نفعل إذن ؟! ندفع الزكاة ؟!

وفوجئ (علاء) بسخرية السائق ، ووجد نفسه يتطلع إليه وقد ازدادت دهشته ، فأدرك السائق جهله فعلاً بحقيقة ما يفعله .. انقلبت سخريته إشفاقًا ، ووجد نفسه يجيبه فى مرارة :

ــ نعم يا (علاء) يا بنى .. نحن نسرق ، فهذا السولار الذى نبيعه لك أنا وغيــرى مــن السائقين الذين يتعاملون معك ملك الشركات التى نعمل بها ، ولو اتقفش أحدنا وهو يبيعه لك ستذهب فورًا أنت وهو فى حديد .

و ....

وسقط الجركن الممتلئ بالسولار من يد (علاء) ، وتسمَّرت عيناه على وجه السائق فى ارتياع ، فلم يملك السائق إلا أن يضحك ساخرًا من سذاجته ، ثم استطرد قائلاً بكل مرارته :

ــ ماذا بك يا بنى ؟! هل فوجئت ؟! لماذا ؟! ألست من هذا البلد ؟! يا بنى يا حبيبى « مصر » كلها ماشيه هكذا الآن ..

بالسرقة وبالنصب وبطرق أخرى أكثر قذارة ، والشاطر فيها هو الذى يعرف الطريق المناسب له من هذه الطرق .

★ ★ ★

ما إن دخل المعلم (شحات) المخزن بسيارته حتى فوجئ بصبيانه يهرولون إليه ليخبروه بأن (علاء) ترك لهم النقود التى كانت معه ، وترك عربة السولار والبراميل وأدوات الشغل كلها على الطريق ، وانطلق منصرفًا بعصبية .. ضربت الدهشة الرجل ، وانفلت سؤاله دون أن ينزل من سيارته :

ــ لمـــاذا ؟!

ــ حاولنا أن نعرف منه السبب ولم يخبرنا بشىء .

ــ هل ضايقه أحد ؟!

ــ وهل يجـروء أحـد على مضايقته .. الحى كله والسائقين يعلمون أنه يعمل مع المعلم (شحات) .

ــ إذن ماذا حدث ؟!

ــ لا نعرف ..

رماهم المعلم بنظرة حيرة وهو يخرج موبايله من جيب صديره .. طلب (علاء) ، فإذا بموبايله مغلق .. طغت دهشته وحيرته ، وأطرق مفكرًا لوهلة أسرع بعدها يطلب (سمر) قائلاً لها :

ــ (سمر) حبيبتى .. قابلينى أسفل منزلكم عندما أرن عليك .. أنا فى الطريق .

وأغلق الموبايل ، واستدار بسيارته مغادرًا المخزن .. أقل من عشرين دقيقة وكانت (سمر) تقوده إلى منزل أم (يوسف) بعدما فشلت معه فى معرفة ما حدث .. استبقاها فى السيارة أمام المنزل ، ومضى هو إلى داخله ، وفوجئ به (علاء) واقفًا أمامه بباب الحجرة بطوله الفارع الذى يظهره جلبابه الصعيدى الفاخر ، وهيبته التى تجلل وجهه الأسمر الوسيم .. انفلتت هتفته بمنتهى الدهشة والارتباك :

ــ معلم (شحات) !

وكان رد المعلم (شحات) بصوته الهادئ الحنون :

ــ إزيك يا (علاء) ؟



ــ الله يسلمك يا معلم .. تفضل .. تفضل .

وأسرع يزيح ثيـــابه الملقاة فوق مقعـــد خشبى قديم بجوار الفراش ، وجلس المعلم (شـــحات) بالمقعد واضعًا ساقًا فوق ساق ، بينما أردف (علاء) فى حرج :

ــ لا مؤاخذة يا معلم .. المكان لا يليق بحضرتك .

وجاءه سؤال المعلم (شحات) دون مقدمات :

ــ ماذا حدث يا (علاء) ؟

وكان رد (علاء) بدرجه وارتباكه :

ــ لا شىء يا معلم .

ــ لماذا تركت الشغل إذن ؟

جلس (علاء) على حافة الفراش منكسًا رأسه دون جواب ، فما كان من المعلم (شحات) إلا أنه أردف قائلاً له بحزم دون أن يتخلّى عن هدوئه وأدبه :

ــ أُنظر إلىّ يا (علاء) وأجبنى ! لماذا تركت الشغل ؟

ــ لأنه .. لأنه ..

ــ لأنه ماذا ؟

ــ لأنه حرام .

بُهت المعلم (شحات) .. تعلّقت عيناه بعينى الفتى بنظرة غضب عاصفة ، ووجد نفسه يردد بغضبه الذاهل :

ــ حرام ؟!

ولم يملك (علاء) إلا أن ينكّس رأسه مرة أخرى هربًا من نظرة المعلم الشرسة ، بينما أخرج المعلم علبة سجائره « المارلبورو » من جيبه ، وأشعل سيجارة لنفسه ، وأخذ منها نفسًا عميقًا ، ثم عاد ينظر إلى الفتى مردفًا بهدوء مريع :

ــ من حرّمه ؟

ــ ربنا سبحانه وتعالى .

ــ كيف ؟

ــ هذا السولار الذى نشتريه مسروق ، وحضرتك تعلم ذلك .

ـــ ومن الذى يسرقه ؟

ـــ السائقون الذين يبيعونه لنا .

ـــ ومن أخبرك بهذا ؟

ـــ سائق منهم .

ـــ أخبرك أنه يسرق السولار الذى يبيعه لنا ؟

ـــ نعـــم .

ـــ وأخبرك ماذا أيضًا ؟

ـــ أخبرنى بأنه إذا ما تم ضبطنا سنذهب إلى السجن .

ـــ يا رجل !! السجن مرة واحدة ؟

قالها المعلم (شحات) بمنتهى السخرية فلم يدر (علاء) بماذا يجيب ، وتعلقت عيناه بعينى المعلم باستغاثة من يريد أن يفهم ، فما كان من المعلم إلا أنه استطرد قائلاً بنفس لهجته الساخرة :

ـــ إذن بماذا تفسر حضرتك يا شيخ (عـــلاء) وقوفك بطريق عـــام لتشترى ســـولارً مسروقًا على امتداد شهر ؟ وبماذا تفسر أيضًا تشغيلى لمخزن مساحته ألف متر ممتلئ بسولار مسروق

بطريق عام آخر منذ ما يزيد على العشر سنوات ، بينما المباحث تدهس الطريقين ذهابًا وعودة ليل نهار ، ومع ذلك لم تذهب حضرتك ولا أنا ولا أحـــد مـــن رجالى إلى السجن ، وحتى لم يقترب منك أو منا أحد ليسألنا عما نفعل ؟

بماذا تفسر ذلك يا عم الشيخ (علاء) ؟!

هيا أسعفنى بتفسير ، الله يرضى عنك .. هيا .

وأُسقط فى يد (علاء) .. جرفه شلال هادر من الحرج والارتباك وعدم الفهم ، وخرج السؤال منه لا إراديًا :

ـــ إذن ماذا يعنى كلام السائق ؟

وجاء جواب المعلم بمنتهى القرف :

ـــ يعنى أنه حمار .... مثلك .

بُهت (علاء) .. انفلتت هتفته الذاهلة :

ـــ معلم !

وكان رد المعلم بهدوئه المثير :



ـ عارف يا بنى .. لو أن شخصًا غيرك ترك أدوات الشغل بهذه الطريقة على الطريق دون أن يسلمها لأحد من رجالى ، واتهمنى فى وجهى بأن تجــارتى حــرام ماذا كنــت فاعل به ؟ كنت علقته من قدميه فى سقف هذه الحجرة ، وسلخت جلده عن عظامه .

ضرب الارتياع (علاء) من جبروت الرجل الذى تبدّى له لأول مرة منذ التقاه ، وشُل لسانه داخل فمه ، بينما أردف المعلم قائلاً :

ـ يشفع لك عندى فقط وصية بنت أختى عليك ، وأمانتك حين رددت لى الألف جنيه التى تركتها لك خطأ فى الحساب أول أمس .

وغرس المعلم نظرة نارية فى عينى الفتى فكّت أوصاله كلها من بعضها ، ثم نهض منصرفًا ، تاركًا الفتى جامدًا فى وقفته كصنم يجسد الرعب والذهول فى ذروتهما .

★ ★ ★

ألف وأربعمائة جنيــه خــرج بها (علاء) من الشهر الذى عمله مع المعلم (شــحات) بعــد كافة مصروفاته الشخصية ، وقبل يوم واحد من تركه العمل كان قد أرسل ألف جنيه إلى أمه وإخوته فى « أسيوط » ، وسدد ثلاثمائة جنيه لأم (يوسف)

قيمة إيجار الحجرة المتراكم عليه ، واحتفظ لنفسه بمائة جنيه فقط مطمئنًا إلى استمراره فى عمله ، وتواصل تدفق أجره ، وما يمنحه له المعلم (شحات) من بقشيش ، وما يمنحه له (حسين) من آن لآخر ، ولكن ها هو كل هذا ينقطع فجأة ، وبلا سابق إنذار .. ها هو يترك العمل ، ويخسر المعلم ، ويخسر حنفية النقود التى فُتحت له ..

كــارثة ...

كارثة لم يشعر بها إلا صباح اليوم الخامس لتركه العمل حين فتح عينيه على نهار جديد وهو لا يملك جنيهًا واحدًا فى جيبه .. هنا فقط أبصر الكارثة بتفاصيلها السوداوية المفزعة ..

عادت الأيام السوداء ..

عاد عاطلاً ..

عاد لا يملك قوته ..

لا يملك إيجار حجرته ..

لا يملك قوت أمه وإخوته ..

لا يملك حتى ثمن علبة سجائر ..

تشبثت عيناه بسقف الحجرة وهـو مطروحًا فى فراشه ، مضروبًا بذهول غاشم يكاد ينسف عقله ، ويدفع به إلى هاوية الجنون .. نشرت أمام عينيه وذاكرته صفحات أيام بطالته التى سبقت عمله مع المعلم (شحات) ، فإذا بها أيام ذل وهوان الموت أرحم منها مليون مرة .. قفز أمامه حال أمه وإخوته وقد نفذت منهم الألف جنيه التى أسعفهم بها ، فإذا بهم يتضورون جوعًا ، وربما هلك أحدهم مرضًا دون علاج .. ضربه الفزع ..

انتفض من الفراش ، وانطلق جريًا من الحجرة ، هابطًا السلم قفزًا بقميصه وبنطاله اللذين كان ينام بهما ، ودون أن يدخل الحمـــام ، أو حتى يغســل وجهــه .. قطع عليه قفزاته نداء (أم يوسف) جافًا مستهزئًا من مجلسها بصدر شقتها :

ـ (علاء) أفندى !

التفت إليها مختنقًا :

ـ نعم يا حاجة .

ـ سمعت إنك تركت الشغل .

كظم غيظه ، ولم يجبها بشىء ، فزفرت ساخرة :

ـ يا فرحة ما تمت ..

كاد يبصق عليها .. واصل قفزاته على السلم .. انطلق فى الحوارى مهرولاً قاصدًا مقهى الصعايدة ، وما إن لمحه (ياسر) حتى تلقاه هاتفًا ببشاشته :

ـ أين أنت يا عمنا ؟

ـ ماذا هناك يا (ياسر) ؟

ـ ضيف عزيز من « أسيوط » .

وأشار إلى جندى صاعقة يجلس مشغولاً بتقليب كوب شاى أمامه ، فانفلتت غمغمته فى توجُّس :

ـ محمـــود ؟!!

وأسرع إلى شقيقه يأخذه فى حضنه :

ـ إزيك يا (محمود) ؟

ـ الله يسلمك يا (علاء) .

ــ اجلس !

وجلس الشقيقان ، وبادر (علاء) شقيقه قائلاً وهو يجاهد فى مداراة توجُسه بابتسامة باهتة :

ــ ما هذه المفاجأة الحلوة يا (حودة) ؟

وكان رد (محمود) متجهمًا :

ــ جئتك مضطرًا يا أخى .

ارتعشت ابتسامة (علاء) :

ــ مضطرًا !

ــ نعــم ، فما جئتك لأجله لم يكــن يصلح إخبــارك به فى التليفون .

ــ إذن فهى مشكلة كبيرة .

أطرق (محمود) فى غم وحيرة ، فأسرع (علاء) يستنطقه بعصبية وانزعاج :

ــ تكلم يا (محمود) ! ماذا حدث ؟

ــ أمك .

انفلتت هتفة (علاء) بمنتهى الانزعاج :

ــ ما بها ؟

ــ مريضة .

ــ مريضة ؟! مريضة بماذا ؟

ــ فشل كلوى .

ضربته الصدمة :

ــ ماذا ؟! أمى ؟!

أومأ (محمود) بالإيجاب فى غم ، فعاد شقيقه الأكبر يهتف به مفزوعًا :

ــ كيف حدث هذا ؟ كيف ؟

ــ من شهر تقريبًا بدأت تشعر بألم فى جنبيها ، فذهبت بها خالتك (صفية) إلى مستشفى « أسيوط » العام لأنى كنت فى المعسكر ، وفى المستشفى طلب الأطباء منها عمل أشعة للكليتين وتحاليل وظائف كلى ، فما كان من خالتك إلا أنها عادت بها دون أن تفعل شيئًا من هذا ، فلم يكن معهما ســوى مصروفات مواصلاتهما ، ولم يكن أمام أمك ســوى تحمُّــل آلامها ، حتى عدت أنا الأسبوع الماضى فى إجازتى الشهرية ، وأرسلت أنت الألف جنيه ، فسارعت بعمل الأشعة والتحاليل المطلوبة لها ، فإذا بها مصابة بفشل كلوى ، وتحتاج إلى غسيل كلوى مرتين أسبوعيًا ..

ــ يا نهار أسود !! فشل كلوى ؟!

هكذا انفلتت صرخة الفزع من (علاء) ، وليأتيه الرد إيماءة تأكيد من شقيقه بمنتهى الغم ، فعاد (علاء) يسأله بكل صدمته وذهوله :

ــ وكيف تصرفتم ؟

ــ أجرينا لها الغسيل هذا الأسبوع بما تبقى من الألف جنيه .

ــ وكم يتكلف هذا الغسيل ؟

ــ مائة وخمسون جنيهًا فى المرة الواحدة .

ــ إذن فهى تحتاج ثلاثمائة جنيه أسبوعيًا .

ــ نعم ، وهذه هى المشكلة التى اضطرتنى للمجىء إليك .

أسقط فى يد (علاء) ، وراح يحدق بوجــه شقيقه بذهول مريع حتى وجد نفسه يسأله وهو يكاد يُجن :

ــ وماذا إذا لم تغسل ؟

ــ تُصاب بتسمم فى الدم يؤدى إلى وفاتها فى أقل من 48 ساعة :

* * *



الفصل السادس

خلال الساعة التى جلسها (علاء) مع شقيقه (محمود) أمام المقهى لم تتوقف (سمر) عن قطع الشارع ذهابًا وعودة أمامه وهى تستنهضه بعينيها فى عصبية واضحة .. كان واضحًا أنها فى حالة غضب وغليان ، ولكن (علاء) تجاهلها تمامًا حتى انصرف شقيقه ، ثم انتظرها حتى عادت تمر من أمامه ماضية فى طريقهما المعتاد ، فنهض ماضيًا فى أثرها حتى لحق بها على كورنيش ترعة « الإسماعيلية » ، وقبل أن ينبس هو ببنت شفة ، كانت هى تسأله بمنتهى الدهشة والغضب :

ــ ما الحكاية يا محترم ؟! أكثر من ساعة وأنا أحرث الأرض أمامك ذهابًا وعودة وأنت ولا هنا ؟!

وكان رده فى هدوء رغم غمه :

ــ غصب، عنى يا (سمر) .

ــ غصب عنك ! من يكون سيادة اللواء هذا الذى كنت تجلس معه ونفضت لى من أجله ؟

انفلتت هتفته محذرًا :

ــ (سمر) ! لا تتكلمى عنه بهذه الطريقة .. إنه أخى .

فوجئت ، وأسرعت تعتذر :

ــ أنا آسفة .

وتحركت ماشـية إلى جـواره وهى تبتلـع حرجهـا ، ولكن عصبيتها ما لبثت أن ارتدت إليها من طريق آخر ، فكان تساؤلها فى غضب :

ــ ما هذا الذى فعلته مع خالى ؟!

لم يجبها بشىء ، ولم يلتفت إليها ، فعادت تسأله :

ــ هل حقًا تركت العمل معه ؟

جاءها رده باقتضاب ووجوم :

ــ نعـم .

ــ لمــاذا ؟

ــ ألم يخبرك هـو ؟



— أريد أن أسمع منك أنت .

— لأن تجارته حرام .

— اخــرس .

هكذا جاءه ردها بمنتهى السرعة والغضب كصفعة دامية هوت على صدغه .. تسمَّر فى مكانه محدقًا بها فى بهوت قابلته هى بغضب مسعور جعل الشرر يتطاير من عينيها وهى تحدق به بمنتهى العصبية .. أدرك حجم ذلته وإهانته لحبيبته التى لم يكن لها ذنب سوى أنها أرادت مساعدته والوقوف إلى جانبه فى ظروفه الصعبة ..

داهمه الخجل من نفسه ، ووجد نفسه يعتذر لها بجم خجله :

— أنا آسف يا (سمر) .

لم يهدئها اعتذاره ، وظلت تحدجه بنظراتها الساخطة حتى أطرق بعينيه إلى الأرض ، فتحركت إلى سور الكورنيش وهو يتبعها حتى وقفت أمام السور تغرس نظراتها الجريحة فى مياه الترعة لوهلة ، جاء بعدها صوتها حزينًا دون أن تسحب نظراتها من المياه :

— عندما أخبرنى خالى بما فعلته لم أصدّق أُذنى ، ووجدتنى أسأل نفسى .. معقول ؟!

معقول (علاء) العاقل المحترم الذى أحببت فيه رجولته وذكاءه يتصرف بهذه الطريقة الخائبة ؟!

ولمـــاذا ؟!

لمـــاذا ؟!

وكان الرد سريعًا ، وباختناق لا يقل عن اختناقها :

— لأنى صُدمت بما سمعته من السائق ؟

— أى سائق .

— سائق أخبرنى بأن هذه التجارة حرام .

كظمت غيظها :

— ومن يكون هــذا السائق ؟! مفتى الديــار ؟! أم عالم فى الإسلام ؟!

أسرع يهتف فيها باختناقه :

— يا (سمر) .....

أسرعت تقاطعه بمرارتها :

ــ اسمع يا ابن الناس .. البنت الذكية لا تحب فى الشاب شكله أو ماله كما يقولون ، بل تحب عقله .. ذكاءه ، فالشكل الجميل قد يخفى تحته مخلوقًا مقززًا ، والمال من السهل جدًا أن يضيع ، أما الذكاء فهو صمام الأمان الدائم الذى يضمن للبنت سعادتها مهما كانت ظروف حبيبها ، وكم من إنسان بذكائه أسعد من حوله ، وكم من إنسان بغبائه ضيّع من حوله ، وربما ضيّع أعز الناس .

★ ★ ★

فى حجرته التى لا تدخلها شمس ، وفوق فراشه العطن جلس (عـــلاء) القرفصاء لا يشعر بشـــخوص عينيـــه كالأمـــوات ، ولا بسكونه التـــام كالأصنام ، ولا بصمت القبور الذى يلفه ، فقد انقلبت حواسه كلها متجهة إلى داخله ..

إلى صـــوت شقيقه (محمود) وهو يخبـــره بمصيبة أمهم .. بوقوعها فريسة لمرض لعين عذابه فوق احتمالها ، وتكاليف علاجه فوق طاقتهم .

إلى منظر أمهم المسنة وقد استباح عذاب هذا المرض اللعين جسدها الضئيل الضامر .

وإلى عينيهـــا وهى تستغيث بهما مـــن هـــذا العـــذاب الذى لا يحتمله بشر .

ثم إلى صوت شقيقه (محمود) مرة أخرى وهو يخبره بهلاكها المؤكد فى حال التباطؤ فى غسل كليتيها ولو لساعات معدودة .

ثم إلى صـــوت (ســـمر) وهى تلقّنه درسها المنطبق تمامًا على الموقف « كم من إنسان بغبائه ضيّع أعز الناس » .

ثم إلى المشهد المُتخيل الذى كاد يذهب بعقله إلى غير رجعة .. مشهد أمهم وقد ماتت نتيجة تأخره فى نجدتها ، ومنظر نعشها محمولاً فوق الأكتاف إلى قبرها ، بينما هو يسير خلفها وهو يكاد يُجن ندمًا على تسببه فى موتها .

هنا انتفض الفتى واقفًا ..

انتفض ذاهلاً مفزوعًا ، وكأنه ضرب بصاعقة من جهنم .

وإذا بصوت حاد حاسم قاطع بداخله يوجز له الأمر كله فى سؤال واحد واضح : « أمك تموت ، ولا طريق أمامك لنجدتها سوى المعلم (شحات) ، فماذا أنت فاعل ؟ »

تلفّت حوله بذهـــوله وفزعه وكأنه يبحث عن جواب ، وإذا بصوت خادم مسجد العزبة يأتيه عبر مكبرات صوت المسجد معلنًا وفاة

إحـــدى سيدات العزبة .. تسمّر فى مكانه بذهــوله وفزعه ، فقد خُيل إليه أن الرجل ينعى أمه .. دوّت صرخته هادرة فى أعماقه وجنباته « لا اااااااااا » ، وفى لمح البصر كان يقفز خارج الحجرة .

★ ★ ★

وفوجئ به المعلم (شحات) يقتحم عليه المكتب لاهثًا مفزوعًا ، كأنه هارب لتوه من مستشفى الأمراض العقلية .. انتفض المعلم واقفًا واضعًا يده على طبنجته فى جيب صديره ، وقبل أن ينبس ببنت شفة كان رجاله قد شلّوا حركة (علاء) من الخلف ، بل وهمّوا بأن يفتكوا به لولا أن جاءهم أمر المعلم سريعًا :

ــ اتركوه !

تركه الرجال ، بينما خرج المعلم من خلف مكتبه ، ووقف أمامه يتأمله بجم دهشته لوهلة ، ثم سأله بلهجة جافة :

ــ خيــر ؟!

وكان رد (علاء) بعصبية ، وهو ما زال يلهث :

ــ أريد العودة إلى العمل معك .

فوجئ المعلم .. ابتسم ساخرًا :

ــ وتعمل فى تجارة حرام ؟!

ــ آسف يا معلم .

اشتدت سخرية المعلم .

ــ آسف يا معلم ؟! أين أصرفها « آسف » هذه ؟!

ــ يا معلم أرجوك .

ــ ترجونى ؟!

قالهـــا المعلم بمنتهى السخرية ، ثم عـــاد إلى مقعده خلف مكتبه .. جلس وهو يشـــعل سيجارة بتأنٍّ .. أخـــذ منهـــا نفسًا طويلاً ، ثم رفع عينيه إلى (علاء) مردفًا بنفس هدوئه :

ــ يا بنى العمل معى يحتاج إلى رجال لا أطفال .

هنا انطلقت صرخة (علاء) فى شبه انهيار :

ــ يا معلم .. يا معلم هذا ليس وقته .. أمى تموت .. تموت وتحتاج إلى غسيل كلوى .

فوجئ المعــلم .. تبددت سخريته على الفـــور ، وتسمرت عيناه على وجه الفتى الذى اغرورقت عيناه بالدموع وهو يردف قائلاً :

— هذا هو ما جاء بى إليك بهذه الطريقة يا معلم .. نحن ناس فقراء ، وأمى وإخوتى ليس لهم عائل سواى بعد وفاة والدى ، وكدت سأجن من عجزى عن تدبير قوتهم ، فإذا بى أمام هذه المصيبة ، مرض أمى بالفشل الكلوى ، وحاجتها إلى غسيل كلوى مرتين فى الأسبوع .

دقق المعلم النظر فى عينى الفتى فاطمأن إلى صدق روايته .. أطرق مغمغمًا فى أسى :

— لا حول ولا قوة إلا بالله .

ورفع وجهه إلى رجاله مصرفهم بإشارة من يده ، ثم التفت إلى (علاء) قائلاً فى حنو:

— اجلس يا بنى .

جلس (علاء) ، بينما أطفأ المعلم سيجارته فى المطفأة البلاستيكية التى أمامه ، ثم عاد ينظر إلى (علاء) متسائلاً :

— متى حدث هذا ؟

— من عدة أيام .

ومسح دموعه بيده ، ثم أردف قائلاً :

— أخى الأصغر منى مباشرة مجند فى الجيش ، جاءنى بالخبر بالأمس وهو فى طريقه إلى وحدته .

— وأين بقية إخوتك ؟

— فى « أسيوط » مع أمنا ، فهم أطفال أكبرهم فى الخامسة عشر من عمره .

وعاد (علاء) يمسح دموعه التى خانته مرة أخرى ، فكان تساؤل المعلم بنفس حنوه :

— هل هناك صعيدى يبكى ؟

أطرق (علاء) خجلاً ، وهو يجيبه :

— إنها أمى يا معلم ، وهى ليست كأية أم .. لقد منحتنا عمرها وشبابها بعد وفاة والدنا منذ أكثر من عشر سنوات ، وتحمّلت من أجلنا ما لا يُطاق ، وسعت سعيًا لا يستطيعه الكثير من الرجال كى تربينا وتعلمنا .. باعت واشترت ، وجابت أسواق « أسيوط » كلها بقفص طيور فوق رأسها حتى حصلنا أنا وشقيقى (محمود) على شهادات متوسطة ، وصرنا جاهزين لحمل المسئولية عنها ، فإذا بها تسقط هكذا ، وكأن القدر قضى عليها بالشقاء والعذاب طيلة حياتها ..

أسرع المعلم يرده عن حماقته :

ـ لا يا بنى .. لا .. لا تقل هـذا ، فلا ييـأس مـن روح الله إلا القوم الكافرون .. استغفر ربك ! استغفر !

خشع قلب الفتى :

ـ أستغفر الله العظيم .

وأطرق صامتًا ، فلم ينتبه إلى مسحة الحزن التى سرت فى وجه المعلم ، وجعلته هو أيضًا يطرق شاردًا ، وكأن ذكرى ما مؤلمة داهمته ، وأخذته بعيدًا ، ولكنه ما لبث أن انتشل نفسه من شروده ، وعاد ينظر إلى (علاء) متسائلاً بنبرة حزينة :

ـ متى ستسافر لها ؟

ـ بمجرد أن أدبِّر لها تكاليف الغسيل القادم .

ـ ولكنك تقول أنها تحتاج إلى الغسيل مرتين فى الأسبوع .

ـ نعـم .

ـ وهل ستسافر لها كل مرة ؟

ولم ينتظر جواب (علاء) ، ومضى مستفسرًا :

ـ فى المرة الواحـدة الغسيل وسفرك يحتاجان إلى يومين ، فهل ستسافر أربعة أيام فى الأسبوع ؟ وكم يومًا ستعمل إذن ؟ ثلاثة أيام فقط ؟ وهل عمل ثلاثة أيام هو الذى سيوفر لك تكاليف الغسيلين ؟

أُسقط فى يد (علاء) ، ووجد نفسه يتساءل بمنتهى الحيرة والاختناق :

ـ ماذا أفعل إذن ؟ ماذا أفعل ؟

أشعل المعلم سيجارة أخرى لنفسه ، ثم عاد يسأل (علاء) :

ـ إذا حُلت مشكلة التكاليف ، فهل هناك من أقاربك من يتطوع باصطحابها فى عملية الغسيل ؟

وكان رد (علاء) بغمة :

ـ من سيفعلها مرة لن يفعلها الثانية .. صحيح النجع كله أقاربنا ومنهم أخوالى وأعمامى ، لكننا فى أيام لا ينفع فيها خال ولا عم .. الكل بالكاد يدبر أموره ، والكل يقول يا رب نفسى .

ــ إذن فليس هنـاك مـن يتولى هـذه المهمة سواك أنت أو شقيقك (محمود) .

ــ وأين هو شقيقى (محمود) ؟ إنه فى الجيش ، وإجازته شهرية .. سبعة أيام كل شهر .

ــ وأين جيشه ؟

ــ فى مركز تدريب الصاعقة .

تأمله المعلم بنظرة عميقة ، مد يده بعدها فى جيب جلبابه مخرجًا موبايله ، وهو يسأله :

ــ ما اسمه بالكامل ؟

ــ محمود ربيع عبد الكريم .

طلب المعلم رقمًا فى الموبايل ، ثم أجاب الطرف الآخر قائلاً فى رصانة :

ــ (عصام) باشا .. نطمع فى خدمة من سيادتك ..

ــ ....

ــ هناك جندى مجند فى الصاعقة عنده ظروف صعبة ، ويحتاج إلى أربعة أيام إجازة أسبوعيًا .

ــ ....

ــ اسمه (محمود ربيع عبد الكريم) فى مركز تدريب الصاعقة .

ــ ....

ــ من اليوم ، وأرسله لى .

ــ ....

ــ شكرًا يا باشا .

وأغلق المعلم الموبايل ، ونظر إلى (علاء) ، فإذا به غارقًا فى دهشته ، ابتسم قائلاً له فى حنو :

ــ هذا الباشا هو ابنى الكبير المقدم (عصام الشحات) بمكتب وزير الدفاع .

ازدادت دهشة (علاء) ، بينما أردف المعلم قائلاً :

ــ (محمود) قادم خلال ساعتين .

ثم فتح درج المكتب ، وأخرج منه رزمة نقود مد يده بها للشاب مردفًا :

ـ أمسك هذه !

فوجئ (علاء) :

ـ ما هذه يا معلم ؟!

ـ أمسك أولاً :

تناول (علاء) النقود ، فأردف المعلم قائلا :

ـ هـذه ثلاثة آلاف جنيـه ، تأخذهـا وتأخـذ شقيقك ، وتسافران الليلة ، وتعملان كل اللازم لأمكما وأخوتكما ، وتشتريان لهم كل ما يحتاجونه طوال الشهر من طعام وخلافه ، ولك منى نفس المبلغ كل أول شهر لعلاج أمك ومصروفاتها (هى وإخوتك ، وكل ما عليك هو أن تدعو لها بالشفاء ، وتهتم بعملك معى وتترك الباقى على الله !!!

★ ★ ★

الفصل السابع

سبعة عشر يومًا وكـان (علاء) يستقل القطار عائدًا إلى « القاهرة » بعدما غمر قلبه الاطمئنان على أمه وإخوته ، فقد تراجع شبح الموت عن أمه ، وتعافت كثيرًا كمريضة بالفشل الكلوى من ناحية ، وابتعد شبح الجوع وذل الحاجة عن إخوته من ناحية أخرى .. وفوجئ به المعلم (شحات) يدخل عليه المكتب بحال غير الحـال التى سـافر بها تمامًا .. دخل متهللاً مبتهجًا مندفعًا نحـو المعلم الـذى كان يجلس خلف مكتبه ، طابعًا على رأسه قبلة طويلة مفعمة .. بامتنان صادق من القلب ، وكان رد المعلم أن نهض واقفًا متلقيه فى حضنه بسعادة غامرة ، فقد كان ظنه الغالب فى الشاب فور انصرافه من أمامه بالثلاثة آلاف جنيه أنه لن يعود ، ولن يريه وجهه مرة أخرى ، وكان ظنه هذا منطقيًا فى شاب سبق له أن قابل الثقة فيه باستخفاف مهين ، ولكـن ها هو الشاب قـد عاد

يسبقه امتنانه ، فكانت فرحة المعلم به طاغية وهو يضغطه فى حضنه ، هاتفًا به من قلبه :

ــ حمدًا لله على السلامة يا ولد .

ــ الله يسلمك يا معلم .

ــ طمأننى على الوالدة .

ــ بخير .. بكل بخير يا سيد المعلمين ، وتركتها تدعو لك كما لم تدع لإنسان من قبل .

ــ الله يكرمها ويشفيها .

ــ ويجازيك بكل خير عما فعلته معى يا معلم .

ــ أنا لم أفعل شيئًا يا بنى .. كله من فضل الله .. اجلس !

وعاد المعلم يجلس فى مقعـــده ، بينما استدار (علاء) ليجلس أمامه ، فـــإذا بضـــيف شـــاب يجلس واضــعًا ساقًا فوق ساق بمقعـــد مجـــاور لبـــاب المكتـــب ، وبما لم يسمح لـــ (علاء) بالانتباه لوجوده لحظة دخوله من فرط اندفاعه

ولهفته .. على الفـــور تذكّـــره (علاء) من ضخامته وأناقته وعبوسه وعنجهيته المفرطة ، ومع ذلك أسرع يعتذر له ..

ــ لا مؤاخذه يا باشا .

وأسرع المعلم (شحات) يقدمه للضيف :

ــ (علاء) ابننا يا معلم (رفعت) ، ويعمل معنا .

وكان رد (رفعت) إيماءة متعالية ، التفت بعدها المعلم (شحات) إلى (علاء) مكملاً التعارف :

ــ المعلم (رفعت) .

وكان رد (علاء) فى تبسُّم وأدب :

ــ سبق أن تشرفت برؤية حضرته يا معلم .

ــ أين ؟!

ــ هنا فى المكتب عندما جئت لحضرتك للمرة الأولى .

وإذا بـــ (رفعـــت) يتدخّل قائلاً لـــ (علاء) بكل برود واحتقار :



ــ أنت إذن المتخلف الذى ترك العربة وأدوات الشغل على الطريق وهرب ؟

صاعقة ..

صاعقة هوت فوق رأس (علاء) ، فتسمر واقفًا فى مكانه ، محدقًا فى (رفعت) بعينين جاحظتين تكادان تنفجران ، وهو يسأله مبهوتًا :

ــ متخلِّف ؟!

أما المعلم (شحات) فقد انتفض واقفًا مرة أخرى وهو يحدج (رفعت) بنظرة غضب واستهجان شديدين ، أسرع بعدها يلتفت إلى (علاء) قائلاً بابتسامة متوترة يغمرها الحرج :

ــ المعلم (رفعت) يمزح معك يا (علاء) .

وكان رد (علاء) سريعًا بنفس بهوته :

ــ يمزح معى ؟! يمزح معى بأن يسبنى ؟!

ــ لا .. لا يا (علاء) .. هو لا يقصد أن يسبك .

ــ ماذا يقصد إذن ؟!

وإذا بالرد يأتيه من (رفعت) بنفس عجرفته التى لا تُطاق :

ــ ماذا دهاك يا حمار ؟!

هل ستحقق معنا ؟!

امـــش !

امش من أمامى وإلاّ ....

وتوقّف قبل أن يكملها .. أوقفته صيحة المعلم (شحات) بمنتهى القوة والعصبية والجبروت :

ــ رفعـــت ؟!!

وبُهت (رفعـــت) ، وتســـمّر فى مقعـــده محدقًا فى المعلم (شحات) ، فإذا بالمفاجأة الثانية من الرجل الذى انقلب أسدًا هصورًا غاضبًا أن أردف آمرًا (رفعت) بصرامة مفزعة :

ــ اعتذر لـــ (علاء) يا (رفعت) .

وازداد (رفعت) بهوتًا ، فما كــان مــن المعلم (شحات) إلا أنه أعاد عليه صيحته بصرامة أشد جبروتًا :

ـ قلت لك : اعتذر يا (رفعت) .. اعتذر !

ومرت لحظة صمت رهيبة بالرجلين ، تعلقت خلالها عيونهما بنظرتين صارختين .. شراسة وجبروت مفزع وتحدٍّ من المعلم (شحات) ، وذهول صاعق من (رفعت) ، بينما ظل (علاء) متسمرًا فى مكانه بينهما لا يدرى ماذا يقول أو يفعل ، حتى فوجئ بـ (رفعت) يلتفت إليه قائلاً :

ـ أنا آسف يا .... معلم (علاء) .

قالها بغيظ وغل من نار ، وأعقبها بنظرة أشد غيظًا وغلاً ووعيدًا للاثنين (علاء) ومعلمه .. ونهض مغادرًا المكتب ، ومنطلقًا بسيارته من المخزن ، فالتفت المعلم (شحات) إلى (علاء) قائلاً له وقد ارتد إليه حنانه رغم وجومه وغمه :

ـ هيا يا (علاء) .. اذهب إلى حجرتك ! تناول عشاءك ونم جيدًا ! وغدًا اذهب إلى (حسين) ! وتسلم ورديتك منه !

وكان رد (علاء) بمنتهى الأدب وقد انطفأ وجهه غمًّا هو أيضًا :

ـ أمرك يا معلم .

واستدار لينصرف ، ولكنه ما لبث أن توقف مرة أخرى متطلعًا إلى المعلم بمزيج هادر من الامتنان والاعتذار عما سببه له ، وأدرك المعلم ما تجيش به نفسه ، فما كان منه إلا أنه عاد يصرفه بلهجة أكثر أبوية وحنوًا :

ـ هيا يا (علاء) .. هيا افعل ما قلته لك .

ولم يملك (علاء) إلا أن يجيبه قائلاً :

ـ أمرك يا معلم .. أمرك .

واستدار منصرفًا ، بينما أطرق المعلم فى غم واختناق .

* * *

استقبل (حسين) (علاء) بابتسامة عريضة وهو يهز رأسه ، مما جعل سؤال الأخير يسبق سلامه :

ــ علام تهز رأسك يا (سحس) ؟

ــ كنت واثقًا من عودتك .

ــ لمــاذا ؟

ــ ليس مهمًا السبب .. المهم أنك عدت .

وأخذه فى حضنه مردفًا فى سعادة :

ــ حمدًا لله على السلامة ..

ــ الله يسلمك .

ــ والله لو كنت أعرف مكانك لجئتك ليلتها .

ــ كأنك جئت يا (سحس) .. كأنك جئت .

والتفت (علاء) ملقيًا نظرة باسمة على البراميل الممتلئة ، ثم أردف قائلاً فى تبسم :

ــ بسم الله ما شاء الله .. واضح أن الأحوال تمام .

ــ الحمد لله .

وما كــاد (حسين) يتمها حتى كانت ناقلة سولار عملاقة تتوقف أمامهما ، فأسرع (حسين) يأتى بالچراكن والخرطوم ، وإذا بالسائق وقد نزل من الناقلة يوقفه قائلاً :

ــ لا .. انتظر يا عمنا !

ثم أردف يسألهما معًا :

ــ ألديكما مساطر ؟

وفــوجئ (عـــلاء) بالســؤال ، ولكنــه فــوجئ أكثــر بــ (حسين) يتهلل وجهه بطريقة عجيبة ، ويجيب السائق :

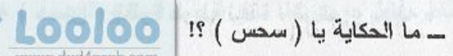
ــ لدينا يا عمنا .. تعال معى .

ثم إذا به يلتفت إلى (علاء) قائلاً بسعادته الغامرة :

ــ سأعود إليك يا (لوءة) .

وأسرع يقفز إلى جوار السائق الذى سبقه بالعودة إلى عجلة القيادة ، ومضيا معًا بالناقلة ، تاركين (علاء) يضرب أخماسًا فى أسداس ، حتى عاد إليه (حسين) بعد ما يقرب من نصف الساعة ، فأسرع يستقبله بسؤاله :

ــ ما الحكاية يا (سحس) ؟!



ــ حكاية ماذا يا (لوءة) ؟!

ــ حكاية المساطر .

وإذا برد (حسين) ابتسامة غامضة لا أكثر زادت (علاء) فضولاً ، وإصرارًا على المعرفة ، فكان رد (حسين) بنفس تبسُّمه :

ــ يا صاحبى .. يا صاحبى تعرف وتفعلها مرة أخرى ؟

ــ أفعل ماذا ؟

ــ تتركنا كما تركتنا من قبل .

التفت (علاء) نحو الترعة مرسلاً نظرة بعيدة بلغت الأفق الرمادى الغامض ، عاد بعدها ينظر إلى (حسين) مرة أخرى ، قائلاً بهدوء من يقر واقعًا لا مفر منه :

ــ لم يعد هذا بمقدورى يا صاحبى .

ــ مهما كان الأمر ؟

ــ مهما كان الأمر .

تأمله (حسين) بنظرة طويلة نافذة ، ثم شرع يجيبه :

ــ إذن اسمع ، وركز معى جيدًا يا صاحبى .. جميع ناقلات مشتقات البترول بها من أعلى فتحات دائرية يتم من خلالها تحميل الناقلات بحمولاتها من سولار أو بنزين أو خلافه .. هذه الفتحات يتم غلقها بأغطية دائرية خاصة بها .. هذه الأغطية مثبت بمركزها مقاسات معدنية مدرجة على شكل مساطر ، ولذلك تُسمَّى مساطر .. هل تعرف شكل المسمار العادى ؟

ــ نعـــم .

ــ يمكنك تشبيه غطاء الفتحة برأس المسمار ، والمسطرة المثبتة به بجسم المسمار الطولى .. تخيلتها ؟

ــ نعـــم .

ــ عقب تحميل الناقلة يتم ضغط الغطاء بمسطرته فى الفتحة ، ثم رفعهما وقراءة العلامة التى بلغتها الحمولة داخل الناقلة ، وبذلك يتم قياس الحمولة ، وبهذه الطريقة يتم تسليمها للسائق من الشركة المُرسلة لها ، وبنفس الطريقة يتم استلامها من السائق فى الشركة أو الجهة المُرسَلة إليها ، أى أن الاعتمـــاد كله فى التسليم والاســـتلام على قراءة هذه المساطر فقط ، ومن هنا تأتى فرصة السائق الذهبية

ــ كيف ؟

ــ باستبدال المساطر الحقيقية المعتمدة بمساطر مزيفة تم تدرجها بحيث تعطى نفس قراءة الاستلام إذا ما نقصت من الحمولة أية كمية ، بشرط ألا تزيد هذه الكمية عن ثلث الحمولة .

ــ وهذه الكمية يبيعها السائق لحساب نفسه ؟

قالها (عــلاء) بذهــول عاصف مما يسمع ، فكان رد (حسين) بسخرية تفوق ذهوله :

ــ لحساب نفسه ؟! يا لذكائك يا صاحبى .. وهل يجروء سائق على فعل هذا من تلقاء نفسه ؟

ــ من معه إذن ؟

ــ عقل مدبر فى جهــة التحميل أو جهــة الاستلام أو فى الجهتين معًا .

ــ وطبعًا هذا يحدث مع كل حمولة ؟

ــ مع كل حمولة ، وفى معظم ــ إن لم يكن كل ــ شركات إنتاج وتسويق السولار والبنزين .

ــ وماذا يستفيد التاجر الذى يشترى هذه المواد المسروقة ؟

ــ تقصد أمثال المعلم (شحات) وهم بالآلاف ؟

ــ نعــم .

ــ التــاجر يشترى هــذا المسروق بنصــف الثمن ، ثم يقوم بتسويقه بأسعار أقل كثيرًا من الأسعار المعتمدة ، ولكنها أيضًا أعلى كثيرًا مما اشترى به ، وبذلك يربح الطرفان .. التاجر والمشترى .

ــ والعقل المدبر والسائق أيضًا ؟

ــ برافوا يا عم (لوءة) .. والعقل المدبر والسائق أيضًا .

ــ وهذا يعنى أن هناك ملايين الجنيهات تتم سرقتها واقتسامها يوميًا .

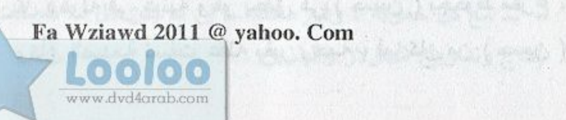
ــ نعم يا صاحبى .

وكاد (علاء) يسقط من طوله من هول ذهوله .. واحتشد كل ذهوله فى عينيه وهو يحدق فى (حسين) بجحوظ مفزع ، وكأن الصدمة نسفت عقله بغير رحمة ، فما كان من (حسين)

إلا أنه ابتسم مربتاً عليه فى إشفاق ، ثم أردف قائلاً بمنتهى البساطة ، وكأنه يختتم حدوتة أطفال :

ــ يا صاحبى .. إنها مافيا .. مافيا أكبر من المافيا التى نسمع عنهـا ، أو نشاهدها فى الأفلام الأمريكية .. مافيا تبدأ بنا نحن الواقفون بهــذه العربات والبراميل على الطريق ، ولكن من المستحيل أن تعرف أين تنتهى !!!!!

ــ يتبــع ــ



سلسلة رومانسية رفيعة المستوى



السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب
أو الأم حرجًا من وجودها بالمنزل



فوزى عوض

ملك النار

اسمع يا بن الناس .. البنت الذكية
لا تحب فى الشاب شكله أو ماله كما يقولون ،
بل تحب عقله .. ذكاءه ؛ فالشكل الجميل قد
يخفى تحته مخلوقًا مقززًا . والمال من السهل
جدًا أن يضيع ؛ أما الذكاء فهو صمام الأمان
الدائم الذى يضمن للبنت سعادتها مهما
كانت ظروف حبيبها .

118

الثمن فى مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



